الفرقان

بين توحيد أهل السنة وتوحيد القبوريين

(نقض الحيل)

هذه الطبعة مزيدة

قدم لطبعته الأولى

العلامة الشيخ / عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

رحمه الله

تأليف

مجدي بن حمدي بن أحمد بن محمد

رقم الإيداع : ١٩/٤٥٢٤
ردمك : ٢- ٦٦١ – ٣٥ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى : ١٤٢٠هـ.
الطبعة الثانية : ١٤٣٣هـ.

□ $ # " !

m

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعـوذ بـالله مـن شرور أنفـسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومـن يـضلل فـلا هـادي لـه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسـوله صـلى الله عليـه وسـلم M 4 5 6 7 8 9 : ; < =

? @ L [آل عمران: ١٠٢] M ! " # $ % & '

( ) * + , - . 0 1 | 3 4 5 6 7 8 |

: ; < > ? L [النساء: ١] M u v w x y z {

| } ~ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ © فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ L [الأحزاب: ٧٠-٧١].

إن خير الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي نبينـا محمـد صـلى الله عليـه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضـلالة ، وكـل ضلالة في النار .

أما بعد : فهذه الطبعة الثانية من كتاب الفرقان تأتي وقد رحل مقدمه الذي قدمه للناس قبل قريب خمسة عشر عاماً ، الشيخ العلامة /عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ـ رحمه الله ـ ففقدت الأمة بأسرها فقيهاً حنبلياً معتبراً كأن الفقه بين عينيه ، وعالماً ربانياً بذل نفسه للإسلام وأهله ؛ فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، وجمعه مع نبيه صلى الله عليه وسلم على الحوض وفي الجنة . آمين ... آمين ... آمين .

ثم يجدر التنبيه أن هذه الطبعة وإن كانت موافقة للطبعة الأولى في المعانى وكثير من المباني إلا أن بها زيادات كثيرة أرجو ألا تخلو من فائدة ؛ لذلك قيدت تقديم الشيخ بالطبعة الأولى .

***

إن أجل نعمة أنعمها الله عز وجل على خلقه أن دلهم على إفراده بالقصد والطلب ، وذلك بما فطر قلوبهم على معرفته ، وبما نصب لعقولهم من الدلائل على وحدانيته وإرادته وعلمه وقدرته ، وبما أرسل إليهم من رسله قال تعالى :

[Z X W V U T S R Q P O N M

\ ] ^ L [سورة النساء : ١٦٥] . فقطع عذرهم بعد أن نبههم وفصَّل لهم .

قال تعالى : M m n o p q r s u v w y z

{ | { ~ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ

© ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾

{ ~ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ©

ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ´ µ ¶

ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ L [سورة الحشر :٢١-٢٤]

فانظر إلى هذا وما كان مثله ـ وما أكثره في القرآن الكريم ـ تعرف قدر إحسانه سبحانه وتعالى إلى عباده بتعليمه إياهم أسمائه الحسنى وصفاته العلى وأفعاله المباركة ، وبدلالته إياهم على قصده وحده .

فإذا أردت أن توقن بقدر هذه النعمة فدونك معبودات أهل الأرض ... البشر ، والبقر ، والشجر ، والحجر ، وما دون ذلك ، فانظرها تر سلسلة من انتكاسات عقلية كبيرة جعلت من أهلها عاراً على بني آدم .

M g h i j k l m n o p q r s t

u v w x z { | } ~ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ L

[سورة الأنعام : ١٢٢] .

إن التوحيد ليس سبيلاً إلى رضوان الله عز وجل وجنته فحسب، وإنما هو شرف الإنسان والمعيار الحقيقي لأدميته الذي يرفعه الله به من الانحطـاط عـن رتبة البهائم ، وإلا فانظر إلى وصف الله عز وجل لأهل الـشرك : M ! "

L 2 1 0 / . , + *) ' & % $ #

[الفرقان : ٤٤] .

* * *

القبورية ـ كما سترى ـ هي عبادة الأموات من دون الله عز وجل ، وسـترى في هذه الرسالة أقوال منظري ودعاة القبورية ، وأين تجدها حتى تتثبـت منهـا بنفسك ، وستلمس كيف جمع دعاء غير الله عز وجـل القبـوريين مـن عـرب وفرس على عداوة أهل السنة .

وقد شيدت القبورية بنيانها كمذهب على دعامتين أساسيتين :

* التصوف الفلسفي الباطني .

* والخرافة والأساطير .

أما التصوف الفلسفي فقد ضمن للدعوة الباطنيـة تفـسيراً منحرفـاً يهـدم أصول الإسلام : التوحيد ، والنبوة ، والقرآن ، والشريعة ؛ فكان سـمة فارقـة في تاريخ الدعوة الباطنية ؛ إذ لم يرتبط بالقاسم المشترك لكل الحركـات قبلـه ،

وهو دعوى التشيع ونصرة آل البيت ، تلك الدعوى التي ارتبطت دوماً بعقاب عامة أهل السنة والولوغ في دمائهم . فكان عدم ارتباط التصوف الفلسفي بهذا التراث الدموي أبعد له من التهمة ، وأيسر لحركته بين العامة .

وهكذا حقق التصوف الفلسفي للدعوة الباطنية كل ما تصبو إليه من أهداف : تعطيل الصانع ، وإبطال النبوات ، وإسقاط الشرائع ، لكن عبر منظومة فكرية ليس للسيف فيها كبير شأن ، وإن كانت في ذات الأمر أشد فتكاً وضرراً بالأمة من إعمال السيف فيها .

***

أما النبوة فقد تأخرت في هذا البناء الفلسفي الباطني في الرتبة عن الولاية حتى صار الترتيب : الولي ثم النبي ثم الرسول ، يقول قائلهم :

مقام النبوة في برزخ فويق *** الرسول ودون الوليّ [١]

ويقول ابن عربي :

سماء النبوة في برزخ *** دون الولي وفوق الرسول [٢] .

---

(١) هذا البيت نسبه ابن تيمية ، والآلوسي لابن عربي ، وقد ذكره الشعراني في طبقاته غير منسوب.

(٢) لطائف الأسرار لابن عربي ص ٤٩ .

وقال ابن فارض [1] . :

منحتـك علمـاً إن تُـرِدُ كشفه فَـرِدْ سبيلي ، واشرع في اتباع شريعتي
فنبـع صَـــدَّاء مـــن شراب نقيعـه لـدي فـدعني من سراب بقيعة
ودونك بحر خضته ، وقف الأولى بساحـله صوناً لموضع حرمتي

فشبه شريعته ـ علم الباطن ـ بالماء الصداء وهو ماء يضرب به المثل في الغزارة والعذوبة في مقابلة شريعة الرسول ـ علم الظاهر ـ بالسراب البقيعة الذي ليس بشيء .

ونقلوا عن البسطامي قوله : " تالله إن لوائي أعظم من لواء محمد صلى الله عليه وسلم ، لوائي من نور تحته الجن والإنس ، كلهم من النبيين "[2] اهـ.

إن هذا قد نقل الأسوة من الرسول والنبي إلى الولي ، وعهد بقيادة البـشرية إلى ولي مطلق السراح من كل قيد ، إذ لم يعد يصلح أن يكون تحت شريعة نبي هو أكبر منه !.

([1]) انظر تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد للعلامة البقاعي ، ضمن كتاب مصرع التصوف ص١٩٩ .

([2]) نشأة التصوف لإحسان إلهي ظهير ـ رحمه الله ـ ص١٨٦ ، وقد عزاه إلى لطائف المنن والأخلاق للشعراني ج١ ص ١٢٥ .

وحاصل القول أن الولي الحاضر في منظومة التصوف الفلسفي قد صار أعظم أثراً في الدعوة الباطنية من إمام الشيعة المعصوم الغائب ، مما شكل فتحاً جديداً للدعوة الباطنية ، بلغت به من هدم الإسلام ما لم تبلغه من قبل .

إن هذا البعد الفلسفي الجديد للولاية قد مهد الطريق للخرافة أن تنسج الأساطير حول الأولياء ، وإذا كان الولي ـ عند هؤلاء ـ أقدر على التصرف بعد موته منه حال حياته ؛ فلا شك أن هذا البعد الفلسفي الجديد قد مهد لسلطان الفكر القبوري على أتباعه لاسيما من العامة .

إن هذا يدلنا على أن القبورية صورة من أخطر صور الدعوة الباطنية[١]، تلك الدعوة التي زلزلت كيان الدولة الإسلامية منذ ظهرت على يد اليهودي

([١]) الباطنية لها صور كثيرة ، ربما بدا بينها شيء من التعارض والخلاف ، فهي مذهب مرن أشبه بالزئبق الذي يتشكل بهيئة القالب الذي يُصب فيه ، ويمكنه التسلل إلى أدنى الفراغات ، وهذا ناشيء عن مراعاة الدعوة الباطنية للبيئة التي تتحرك فيها ، بل وحال الشخص المدعو ، لكن يجمع هذه الصور كلها التدرج بالمدعوين إلى تعطيل الصانع، وإبطال النبوات ، وإسقاط الشرائع، وإنما صيغ كل ذلك لهدف أصلي وهو تحطيم دولة الإسلام ، وألا يقوم لهذا الدين كيان سياسي قوي يحميه .

أما العلاقة بين الاسم " الباطنية " والمسمى " فرقها " فهو اجتماع هذه الفرق على أن لكل نص ظاهراً وباطناً ـ تأمل كلمة " لكل " ـ والظاهر قشور والباطن لبّ، والعاقل =

عبد الله بن سبأ في عهد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ثم استمرت تشتد حيناً وتخبو حيناً ، حتى بلغت أوج قوتها في العصر العباسي ، إذ صار للدعوة دول وممالك هددت وجود الخلافة الإسلامية ذاتها ، وحولته في كثير من الأحيان إلى وجود صوري يعجز عن حماية أتباعه .

ومع أنها كانت تتستر في كل أطوارها بالتشيع ونصرة آل البيت ، إلا أن خيط الفتنة كان ينتهي في كل مرة بمن يتتبعه إما إلى اليهود وإما إلى الفرس .

***

شبه القبوريين واحدة وحيلهم لا تتغير ، يتوارثها دعاة القبورية جيلاً بعد جيل ، ومع أن الجيل السابق كان الأقدر على عرض شبهه إذا ما قورن بهذا الجيل الجديد الذي يتسم بالاندفاع والطيش والتهور في عرضه لهذه الشبه ، إلا أن هذا الجيل الجديد كان أشرس في إدارته للصراع مع الإسلام السني .

فلقد ورث هؤلاء القبوريون الجدد تركة ثقيلة من الذل والصغار من معارك شهيرة مرغ فيها علماء أهل السنة الأطهار أنوف دعاة القبورية جيلاً بعد جيل؛ فلم يجد هؤلاء الجدد سوى أساليب وضيعة أدناها الكذب الصراح

= يعتني باللب ويترك القشور . ومرادهم من ذلك اختراع دلالات جديدة لألفاظ النصوص تناسب أهدافهم السابق ذكرها .

ولا سقف لأعلاها ، ومن بينها الاستقواء بأبناء فارس .

وفي هذا الجزء بعض أمثلة لحيل جيلين من دعاة القبورية ، ستجد بينهم جميعاً قاسماً مشتركاً ، وهو القدرة على التخييل والإيهام ، فكلامهم أشبه شيء بخفة اليد وعمل السحرة ، إنها مجرد حيل إذا ما أحسنت عرضها على العلم وكلام أهله ؛ علمت أنها غريبة عنه لا تشبهه لا من قريب ولا من بعيد .

* * *

ولقد اعتنيت في هذا الجزء بالنقل عن بعض الأشاعرة ، وبخاصة الرازي فليسوف الأشاعرة ، مع أن له أخطاء جسيمة في أصول كبار .

وإنما نقلت عنه لتكون الحجة به أبلغ وألزم على قوم يدعون الأشعرية ، وأن مقالة مخالفيهم في مسائل التوحيد محض مؤامرة تيمية وهابية على خلفية نقد ابن تيمية للأشعرية .

فهذه أقوال بعض أئمة الأشعرية تأخذهم أخذاً شديداً ، وهذا قول فليسوفهم يصعقهم ؛ إذ ينعت ما عليه القبوريون من الفعل والاعتقاد ؛ بأنه نظير ما كان عليه المشركون الأوائل من الفعل والاعتقاد . فأي حيلة لهم في هذا !؟.

* * *

هـذه الرسالة عـلى صغرها أثيرة لـدي ، هـي أحـب إليَّ مـن جميـع مـا كتبتُ؛ وذلك لشرف موضوعها، حتى إني لأرجو درها في قبري وفي القيامة ؛ والله جل جلاله لا حد لكرمه وإحسانه يجازي على القليل بالكثير ، ولا حـول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقد كنت أمني نفسي منذ ما يزيـد عـن عـشر سـنوات بإعـادة طباعتهـا ، ولكنها الشواغل والشواغب ـ لا كثرها الله ـ تُغير على القلب فتأسره ، وتقطع على العبد تأميله ، فاللهم لا تشغلنا بغيرك ، ولا تحرمنا من حسبة نرجو ثوابهـا عندك ، وما على العبد لو مد في مثل هذا حبل الأماني !؟. فامنن إلهي على غـير ذي حول ولا حيلة .

وكنت قد وضعتها على الاختصار حتى يعـم بهـا الانتفـاع ، إذ كانـت في الأصل جزء من كتابي شرح أصول السنة ، ومع هذا فأرجو أنها قررتْ أصـلاً فارقاً ، ومعاني نافعة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وهذه الطبعة الثانية وإن كانـت ذات زيـادات كثـيرة ، إلا أني أرجـو أنهـا لازالت على شرط الأصل من الإيجاز والاختصار .

والله أرجو أن ينفع بها إخواني المسلمين ، وأن يعظم بها أجري ، ولا حـول ولا قوة إلا بالله ، وعلى الله الكريم اعتمادي ، M X Y Z [ ] ^ _ ` a L [سورة غافر : ٤٤] . وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

تقديم العلامة ابن جبرين ـ رحمه الله ـ للطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين إله الأولين و الأخرين قيوم السموات و الأَرَضينَ مدبر الخلائق أجمعين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مدبر ولا معين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بلغ البلاغ المبين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه والتابعين .

أما بعد : فقد قرأت هذه الصفحات التي كتبها أخونا الشيخ أبو محمد مجدي بن حمدي بن أحمد وقد ضمنها بعض خرافات القبوريين وأعمالهم مع الأموات وعقائدهم في الأولياء الذين يدعونهم من دون الله، وما تشبثوا به من الشبهات، وقد اتضح من هذه الصفحات تلاعبهم بالإسلام وغلوهم في الأموات وصرفهم العبادة لأوليائهم وبعدهم عن حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه وفرض على الخلق كلهم، فعلى الموحد صحيح المعتقد أن يتمسك بدينه وأن ينبذ تلك الخرافات والحكايات التي يروجها أعوان الشيطان وعبدة الأموات، ونسأل الله أن ينصر دينه ويعلي كلمته ويصلح أحوال المسلمين ويهدي ضالهم ويردهم إلى الحق رداً جميلاً. والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .   **٣/١٢/١٤١٩هـ**

كتبه عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

عضو الإفتاء المتقاعد

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل كتبه وأرسل رسله ، فأقام على الحق برهاناً وسلطاناً مبيناً، لا يدفعه إلا متكبر عنيد ، ومن تمام رحمته سبحانه أن جعل على الحق نوراً لا يجحده إلا من استشرف للعمى ، وصدق الله العظيم Mفَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ L [الحج : ٤٦]، وأصلي وأسلم على نبينا محمد حامل لواء الحمد وصاحب الحوض وعلى آله وصحبه الأخيار الطيبين .

ثم هذه مسألة في التوحيد راعيت فيها جانب الإختصار[١] ، راجياً نفعها يوم لا ينفع مال ولا بنون ، فأسأله سبحانه أن ينفع بها إخواني المسلمين .

ولأن دين أهل البدع قائم على سلسلة متصلة الحلقات من الجهل والهوى ، فأسأله سبحانه أن ييسر لي كتابه سلسلة متصلة الحلقات من الحق والهدى أشير فيها إلى منهج أهل البدع في الإستدلال ومصادرهم في التلقي ؛ مقارنة

---

(١) إذ هي في الأصل جزء من كتابي " شرح رسالة أصول السنة للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ " نسأل الله أن ييسر طباعته .

بمنهج أهل السنة والجماعة ، وتكون هذه الرسالة أولى حلقاتها والله كريم وعلى كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم لم يبق لي إلا أن أتقدم بخالص تقديري لسماحة العلامة الفقيه الرباني شيخنا / عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين - حفظه الله ـ أن تفضل بقراءة رسالتي هذه وقدم لها مع ما هو فيه من الانشغال والاشتغال .

والحق أنني أيها الشيخ الجليل لا أجد كلمات أعبر بها عن امتناني لكم فقد علَّمتني وعلَّمت أبنائي فأكرمتنا غاية الإكرام .

فلا يسعني إلا أن أقول : " متعنا الله بعافيتك ، وصرف عنك كل ما تكره، وأدام عليك نعمة الطاعة ، وبلغك منها ما تقر به عينيك ويطيب به خاطرك ، وأحسن الله خاتمتك ، وجمعك مع نبيك على الحوض وفي الجنة " .

آمين .. آمين .. آمين .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه أبو محمد

مجدي بن حمدي بن أحمد

٤/١٢/١٤١٩هـ

حقيقة التوحيد عند أهل السنة وعند القبوريين

أولاً : التوحيد عند القبوريين

(عرض وتحليل)

عقيدة القبوريين وأصل دينهم هو صرف ما يستحق لله عز وجل وحده لغيره من الأموات : الأنبياء، والصالحين، والأولياء ؛ لأجل ذلك استحقوا وصف القبوريين ؛ فالقبورية عقيدة يمكن تحريرها في كلمتين " عبادة الأموات " ؛ فحقيقة اعتقاد القبوريين في الأموات مثل ما كان يعتقد المشركون في آلهتهم سواءً بسواء، بل ربما يزيدون كما سنرى إن شاء الله.

ويجلي الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ وجـه هـذا التطـابق فيقـول : " M 9
: ; < L [سورة يوسف : ١٠٦] أي وما يصدق ويقـر أكثـر النـاس بالله من كونه الخالق الرزاق المحيي المميت M = > ? L بالله يعبـدون معه غيره كما كانت تفعله الجاهلية ؛ فإنهم مقرون بالله سبحانه وبأنه الخالق لهم M وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ L [سورة الزخرف : ٨٧]
Mوَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ © وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ

´ µ ¶ ¸ L [سورة لقمان : ٢٥] لكنهم كـانوا يثبتـون لـه شركـاء فيعبدونهم ليقربونهم إلى الله M ` a b c d e f L ، ومثـل هؤلاء الذين اتخـذوا أحبـارهم ورهبـانهم أربابـاً مـن دون الله ، المعتقـدون في الأموات بأنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلاّ الله سـبحانه ، كما يفعله كثير من عبّاد القبور ، ولا ينافي هـذا مـا قيـــل مـــن أن الآيـــة نزلـت في قـوم مخصوصين، فالاعتبار بما يدل عليه اللفظ لا بما يفيده السبب من الاختصاص بمن كان سبباً لنزول الحكم "[1]اهـ.

ولا شك أن قوله "عباد القبور" يعني عباد ساكنيها من الأموات .

وقال ـ رحمه الله ـ : " قوله : Mمَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ L [سورة البقـرة : ٢٥٥] وفي هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحداً من عبـاده يقدر على أن ينفع أحداً منهم بشفاعة أو غيرها ، والتقريع ، والتوبيخ له مـا لا مزيد عليه ، وفيه من الدفع في صـدور عبـاد القبـور ، والـصدّ في وجـوههم ، والفت في أعضادهم ما لا يقادر قدره ، ولا يُبلغ مداه "[2]اهـ.

---

(١) فتح القدير (٣/٥٩) .

(٢) تفسير فتح القدير (١/٢٧٢) .

وبـينٌ مـن تنزيـل الـشوكاني قولـه تعـالى : Mمَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ L على عبـاد القبـور، وجـه المـشابهة في القـصد بيـنهم وبـين مـشركي العرب، وأنه كان في طلب الشفاعة غير المأذون فيها .

ويجلي الرازي فليسوف الأشاعرة[١] ـ المتوفى عام ٦٠٦هـ ـ هذا التشابه فيقول : " إن المشركين وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صـور أنبيـائهم وأكـابرهم ، وزعمـوا أنهـم متى اشتغـلوا بعبادة[٢]هذه التماثيل تكون شفعاء لهم عند الله تعالى .

قـال الرازي : " ونظيره في الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقادهم أنهم إذا عكفـوا على قبـورهم فإنهم يكونون لهم شفعاء عند الله " [٣]اهـ.

---

(١) فليس تيمياً ولا وهابياً ، لا بحكم المذهب ولا بحكم سنة الوفاة ، وقـد كررنـا في هـذا الفصل النقل عنه وعن الشهرستاني أيضاً وهو من متأخري الأشاعرة ؛ ليكون أدعى لإقناع المخالف واقتناعه . بينما قد أخرنا النقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ .

(٢) وأعظم هذه العبادة كان الدعاء كما هو معلوم .

(٣) التفسير الكبير(١٧ / ٤٩) .

فانظر رحمك الله كيف جعل اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر ، نظير ما كان عليه المشركون من الاشتغال بعبادة الأصنام .

ثم فسر وجه الشبه في القصد من أفعالهم؛ بأن كلاً من مشركي العرب وعباد القبور يطلب بهذه العبادة شفاعة من أقيمت لهم الأصنام أو الأضرحة .

انظر هذا وذاك تعرف حقيقة هذا القياس الجلي إن قلنا إن هذا التنزيل من دلالة القياس لا من دلالة اللفظ ، وتعرف وجه الشبه ، وتقف على حقيقة القبورية ، ومعنى قولنا :" القبورية عبادة الأموات من دون الله " ثم فيما يأتي زيادة بيان .

إن تجويز القبوريين بل تقربهم وتعبدهم بألفاظ الشرك الصريحة من دعاء ونداء المقبورين ، وطلب التشفع بهم والتسبب؛ لابد أن يدفعنا إلى السؤال عن الأصل الذي يصدرون عنه ، أو قل عن فهمهم لمعنى التوحيد[1] .

والحق أن هذه المماثلة التي وصفها الرازي بين ما عليه القبوريون ، وبين ما كان عليه مشركو العرب قامت على أصلين :

الأول : حصر التوحيد في اعتقاد الخلق للتأثير لله وحده .

---

(1) وهذا معنى قولنا " توحيد القبوريين " في عنوان الكتاب .

الثاني : التوسع في دعوى الإسناد المجازي .

ومع أن هذا الثاني فرع عن الأول ، إلا أنه مكن القبوريين من التوسع في تمرير ألفاظ الشرك الصريحة بل واستحبابها .

الأصل الأول : حصر التوحيد في اعتقاد الخلق والتأثير :

يقول داود بن سليمان بن جرجيس : " إن الأنبياء والأولياء والمقتولين بسيف المجاهدة كالشهداء الوراد فيهم النص القرآني في حياتهم الحقيقية ، كيف يُستغرب طلب التسبب منهم والتشفع ، فهل إذا عامل أحد هؤلاء الذين هذا حالهم معاملة الأحياء يلام على ذلك أو يعاب أو يؤثم ، مع اعتقاده أن الفعل لله وحده خلقاَ وإيجاداَ لا شريك له ، وأنه يكون من أهل القبور من الأنبياء والأولياء تسبباَ وكسباَ ؟ .

ثم يقول : " فالأحاديث الواردة في الطلب من الموتى وأجمع عليها العلماء مبني أمرها على هذا الأصل "[1]اهـ.

---

(١) انظر دعاوى المناوئين للشيخ عبد العزيز بن محمد ص٣٥١ . وأما قوله " فالأحاديث الواردة في الطلب من الموتى " فكذب صريح ، وأكذب منه قوله: " وأجمع عليها العلماء " . وإنما يتعلق هؤلاء بالموضوعات والأباطيل يزينها لهم أقوام أشبه بالسحرة .

ويقول الشيخ عبد العزيز بن محمد :" ويجوز ابن داود الهمداني(١) الاستغاثة بالموتى ، ويعلل ذلك أن المستغيث بهم يعتقد أن المتصرف في الأمور هو الله ، وأنه وحده يملك الضر والنفع ، ولكن مع ذلك يوجه الخطاب والطلب إلى المقرب ، فالطلب في الحقيقة منه تعالى لا من سواه، وإن كان في الظاهر متوجهاً إلى غيره"(٢) اهـ.

ويقول محمد بن محمد القادري: " وقول يا سيدي أحمد أو شيخ فلان ليس من الإشراك؛ لأن القصد التوسل والاستغاثة، ولا يُشك في مسلم أن يعتقد في سيدي أحمد أو غيره من الأولياء أن له إيجاد شيء من قضاء مصلحة أو غيرها إلا بإرادة الله وقدرته.." (٣) اهـ.

ويقول الرافضي العاملي(٤): " لو قال في دعائه واستغاثته بغير الله : اقض ديني ، أو أشف مريضي ، أو انصرني على عدوي ، فليس منه مانع ولا

---

(١) محمد بن عبد الوهاب بن داود الهمداني من رافضة العراق . له كتاب إزهاق الباطل في رد الشبه الوهابية .

(٢) دعاوى المناوئين ص٣٥١ .

(٣) دعاوى المناوئين ص ١٩٨.

(٤) والعاملي هو محسن الأمين العاملي من رافضة العراق ت ١٣٧١هـ.

محذور فضلاً عما يوجب الإشراك والتكفير ، للعلم بحال المسلم الموحد المعتقد أن من عدا الله تعالى لا يملك لنفسه أو لغيره نفعاً ولا ضراً ..." اهـ .

" ويستنكر الشطي[1] أن تكون الاستغاثة بغير الله شركاً - كما هو عليه أئمة الدعوة السلفية - فيقول حاكياً معتقد الوهابيين في ذلك : " فإنهم يصرحون بأن من يستغيث بالرسول عليه السلام أو غيره في حاجة من حوائجه ، أو يطلب منه أو يناديه في مطالبه ومقاصده ، ولو بيا رسول الله ، أو اعتقد على نبي أو ولي ميت وجعله واسطة بينه وبين الله في حوائجه - فهو مشرك حلال الدم والمال ... " اهـ.

" ويأتي محمد بن علوي المالكي في ذيل القافلة المتعثرة ، فيدعي أنه لا يكفر المستغيث إلا إذا اعتقد الخلق والإيجاد لغير الله "[2] ا هـ .

إنك لن تحتاج إلى إنعام نظر فيما تقدم من النقول لترى الشراكة بين الرافضة وغلاة الصوفية في بغض أهل السنة وعداوة أهل التوحيد ، ويبين العلامة الشيخ الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الأصل الذي يصدران عنه

---

(١) حسن بن عمر الشطي دمشقي ت ١٣٧٤هـ.

(٢) دعاوى المناوئين ص١٩٩ .

في هذا التوافق والتلاقي؛ فيقول في معرض نقده لكتاب السقاف[1] : " ثم إن الكاتب بـل والمتكلمين عمومـاً لا يولون توحيد الإلهية الذي أنكره المشركون أي اهتمام ، وإن تكلموا فيه تكلموا بجهل ، وأدخلوا فيه ما هو نقيضه وضده .

وعلى سبيل المثال يقول الكاتب ص٢٥ : " وأما الدعاء فليس جميعه عبادة إلا إذا دعونا من نعتقد فيه صفات الربوبية أو صفة واحد منها ".

ويقول ص٢٧:" فاتضح أن مجرد النداء أو الاستغاثة أو الاستعانة أو الخوف أو الرجاء أو التوسل أو التذلل لا يسمى عبادة ".

ويقول ٢٨ : " وملخص ما مـر أن العبـادة في اللغـة هـي مطلـق الطاعـة والخضوع لأي أحد كان بخلاف العبادة في اصطلاح الشرع فهي غاية التـذلل والخضوع لمن يعتقد الخاضع له بعض صـفات الربوبيـة ، فـإذا فهمـت ذلـك علمت يقيناً أن من أطاع أحداً وخضع لـه لا لاعتقـاده أن لـه بعـض صـفات الربوبية لا يسمى عابداً له شرعاً .. " .

---

(1) بدأ شاباً أشعرياً ، ثم صار إلى التجهم البين ، ثم انتهى شيعياً معتزلياً يذم الأشاعرة على معاندة المعتزلة ، كتب كتاباً سماه " التنديد بمـن عـدد التوحيـد " فنقـضه الـشيخ العلامـة عبد الرزاق البدر ـ سلمه الله ـ في كتابه القيم " القول السديد في الرد على من أنكـر تقـسيم التوحيد " ، وقد قدم له العلامة الشيخ / صالح بن فوزان الفوزان ـ سلمه الله ـ .

وعلى هذا النهج ذكر أموراً كثيرة ، ومن يوازن بين أقوال الكاتب ، وبين قول الخميني داعية الرفض ، في كتابه كشف الأسرار ص٤٩ حيث قال : " وبعد أن تبين أن الشرك هو طلب الشيء من غير رب العالمين على أساس كونه إلهاً فإن ما دون ذلك ليس بالشرك ، ولا فرق في ذلك بين حي وميت ، فطلب الحاجة من الحجر أو الصخر ليس شركاً ..." يجد أن القولين كما قال الشاعر :

رَضِيعَيْ لَبانِ ثَدْيِ أُمٍّ تَحالَفا ... بأَسْحَم داجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ" [١]

---

(١) القول السديد : ص ٧١ . والبيت للأعشى يصف فيه كرم رجل من العرب يُدعى المُحَلَّقُ ، وقبل هذا البيت :

تُشَبُّ لِمَقرُورِينَ يصْطَلِيَانِها ... وَبَاتَ عَلَى النّارِ النَّدَى والمُحَلَّقُ

وقوله (تقاسما) يعني تحالفا ، واختلف في المراد بالمقسوم به في قوله (بأسحم داج) قال الليث : السحمة سواد كلون الغراب ، فقيل المراد الليل وظلمته ، وقيل المراد بأسحم داج سواد حلمة ثدي أمه . وقيل الرحم ، وقوله " عَوضُ " غير منون ويجوز بالفتح والضم ، قال أبو زيد : عَوضَ أي أبداً . قال أبو عبيد : عَوضُ لا أفعل ذلك ، وعَوضَ بغير تنوين ، والنصب في عوض أكثر . انظر لسان العرب مادة (سحم) ، (عوض) .

فالمعنى حلف الجود أن لا يفارقه وهما في الرحم وهو أسحم داج ، أو أنه والجود رضعا من ثدي واحد وتحالفا ألا يفترقا أبداً .

فهذه حقائق التوحيد والشرك عند القبوريين ، فالتوحيد هو اعتقاد اختصاص الله عز وجل بالخلق والتأثير دون غيره ، ومن ثم حصر الشرك في اعتقاد خلاف ذلك ؛ مما أدى إلى تحريف معنى العبادة ؛ فلم تعد ما دلت عليه ألفاظ الكتاب والسنة من أقوال وأفعال وإرادات تختص بالله عز وجل وحده كالدعاء والسجود والتوكل ، فإذا ما صرفت لغيره تعالى كانت شركاً .

ويقرر محمد بن علوي هذا الأصل بأوضح عبارة فيقول : " الإعتقاد الصحيح أن الخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده ، فهو الخالق للعباد وأفعالهم، لا تأثير لأحد سواه ، لا لحي ولا لميت ، فهـذا الإعتقاد هـو التوحيد المحض ، بخلاف ما لو اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك " [(١)]اهـ .

قلت: توحيد القبوريين هو نفس ما كان عليه اعتقاد المشركين ، إذ إن نسبة الخلق والتأثير إلى الله عز وجل وحده لم ينكرها مشركو العرب .

قال الله تعالى : M [\ ] ^ _ ` a b c d e f L [ الزمر : ٣ ] ..وأخرج ابن جرير بسنده إلى قتادة في قوله تعالى:M ` a b c d e f L قالـوا: مـا نعبد هـؤلاء M b

(١) مفاهيم يجب أن تصحح ص١٦ .

c L إلا ليشفعوا لنا عند الله.

وبسنده إلى مجاهد قوله :M ` a b c d e f L . قال : قريش تقوله للأوثان، ومَنْ قبلهم تقوله للملائكة، ولعيسى بن مريم، وعزير.

وبسنده إلى ابن زيد في قوله تعالى : M ` a b c d e f L قال : قالوا : هم شفعاؤنا عند الله ، وهم الذين يقربوننا إلى الله زلفى يوم القيامة . والزلفى : القرب "[1] ا هـ .

فالقوم كما ترى كانوا عارفين بربهم باسمه وصفته ، قال تعالى : M وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ © ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ L [الزخرف : ٩] . وفي قوله تعالى : M ` a L بيانٌ لحقيقة الشرك ، وطريقِ إثبات الإلهية لغير الله عز وجل ، إذ كانت أفعالهم هي الدعاء، وطلب الشفاعة من الأصنام ؛ فتلك عبادتهم للأصنام ، وكان في فعلهم هذا إثبات إلهية لها ، وإن كانوا عالمين بأنها لا تستقل بجلب نفع أو دفع ضر .

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٠/ ٦١١) .

قال الشهرستاني ـ وهو من متأخري الأشاعرة ـ :" ولكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها كان عكوفهم ذلك عبادة وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها "[١]اهـ .

وقال أبو حيان : " قال ابن عطية في قوله تعـالى : M - . / O
1 2 3 4 6 7 8 9 : L [الأعراف: ١٣٨] :" الظاهر أنهم استحسنوا ما رأوا من آلهـة أولئـك القـوم ، فـأرادوا أن يكـون ذلـك في شرع موسى ، وفي جملة ما يُتقرّب بـه إلى الله تعـالى ، وإلا فبعيـد أن يقولـوا لموسـى اجعل لنا إلـهاً نفرده بالعبادة انتهى "[٢]اهـ.

يعني أن هذا النوع من التقرب إلى الله هو في ذاته عبادة للمتقرب به وإثبات إلهية له مع الله عز وجل . وهذا معنى قولهم : اجعل لنا إلهاً ؛ يعني عـلى وجـه الشراكة مع الله ، لاستحالة أن يكون مرادهم : اجعل لنا إلهـاً منفـرداً ، فـضلاً عن أن يكون مرادهم : اجعل لنا ربـاً خالقـاً ، فـإن هـذا خـروج عـن ديـوان المكلفين جملة .

---

(١) الملل والنحل (٣/ ٧٢٤) .

(٢) البحر المحيط (٤/ ٣٧٧) .

إن في كلام أهل البيان عن معاني القرآن تحقيق معنى العبادة في قوله تعالى : M ` a L وذلك بالإحالة على الأفعال الظاهرة والمقاصد المنضبطة كالدعاء وطلب الشفاعة ، فدعاء الأصنام وطلب الحوائج منها كان عين عبادتها وإثبات الإلهية لها ، ولم يتوقف هذا الإثبات عند علماء الإسلام على اعتقاد الخلق والتأثير في الصنم ، إذ لا يعتقد هذا أهلٌ للتكليف ، ولم تكن بعقول القوم آفة تمنع التكليف، وقد كانوا مقرين بربوبية الله تعالى، وأنه المالك المسيطر على الحقيقة، وأن النفع والضر بيده وحده ، والخلق والإيجاد والتأثير منه لا من غيره .

قال تعالى : M قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ © ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ ´ µ ¶ ¸ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ L [المؤمنون : ٨٤ ــ ٨٩] .

والمقصود أن التأله والعبادة بمعنى واحد . فمن عبد فقد ألَه ، واتخذ معبوده إلهاً . فما يفسر أحد المفردتين من الأفعال ـ كالدعاء ـ أو المقاصد

ـ كطلب الشفاعة غير المأذون فيها ـ مفسر للأخرى ، فمن دعى غـير الله عـز وجل فقد عبده ، ومن عبده فقد اتخذه إلهاً من دون الله .

ومن تأمل كلام أهل العلم في تحقيق هذا المعنى عرف حل سحر مَنْ مر ذكره من أهل البدع، وحل سحر كل من الخوميني وفرخه السقاف ، وعرف حيلتهم جميعاً في تمرير الشرك الأكبر الصريح الجلي عبر تركيب دور يتوه فيه أهل الإسلام ، فمهما بلغ المكلف ـ عندهم ـ من دعاء غير الله عز وجل ولو كان حجراً أو شجراً ـ كما يصرح الخوميني ـ فلن يكفر إلا إذا اعتقد العبادة لحجره هذا ، ولن يكون عابداً له حتى يعتقد فيه الإلهية، ولن يعتقده إلهاً إلا إذا اعتقده رباً خالقاً مؤثراً ينفع بذاته ويضر. ومن هنا يمر الشرك الجلي في حراسة القبوريين ؛ إذ لن يعتقده خالقاً مؤثراً بذاته إلا إذا خرج من جملة العقلاء وديوان المكلفين ؛ وإلا فأين هذا المكلف العاقل الذي يعتقد أن المخلوق المحدث حجـراً كـان أو بشراً هو خالقه وخالق الأرض والسماء !؟

وهكذا ضمن القبوريون لأتباعهم تأصيلاً يحرس أبواب الشرك ويهدم أصل الإسلام .

دين عبدة الأصنام :

إذن فدين عبدة الأصنام قام على أصلين :

الأصل الأول : الإقرار بوجود خالق مدبر غير هذا الصنم . وهو الله عز وجل . قال الشهرستاني : " وضع الأصنام حيثما قدر إنما هو على معبود عليه الحيا غائب ؛ حتى يكون الصنم المعمول على صورته وشكله وهيئته نائباً منابه وقائماً مقامه ، وإلا فنعلم قطعاً أن عاقلاً ما لا ينحت بيده خشباً صورة، ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه وخالق الكل؛ إذ وجوده مسبوق بوجود صانعه وشكله محدث بصنعة ناحته "[1]اهـ .

وقال الرازي : " ثم حكى تعالى عنهم أنهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، واعلم أن من المستحيل أن يقول العاقل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة خالقاً ومدبراً ، لأن الذي يحصل بجعل موسى وتقديره لا يمكن أن يكون خالقاً للعالم ومدبراً له ؛ ومن شك في ذلك لم يكن كامل العقل "[2]اهـ.

---

(١) الملل والنحل (٣/٧٢٤) .

(٢) التفسير الكبير(١٤/١٨٢) .

فهذا كما ترى قاطع بأن عبدة الأوثان لم يعتقدوا في الأصنام الخلق والتـدبير وإلا خرجوا عن حد التكليف ، فاحفظ هذا فسنرجع إليه قريباً عنـد مناقـشة محمد بن علوي المالكي في مفاهيمه التي يجب أن نصححها لمن تركهم خلفه .

أما الأصل الثاني : فالتقرب إلى الله عـز وجـل الخـالق المـدبر بعبـادة هـذه الأصنام : قال الرازي تتمة لكلامه السابق : " والأقرب أنهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يعين لهم أصناماً وتماثيل يتقربون بعبادتها إلى الله تعالى ، وهـذا القول هو الذي حكاه الله تعالى عن عبدة الأوثان حيث قالوا M ` a b c d e f L "[1] اهـ.

وقال الشهرستاني تتمة لكلامه السابق : " لكن القوم لما عكفوا على التوجه إليها كان عكوفهم ذلك عبادة وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها ، وعن هذا كانوا يقولون : M ` a b c d e f L فلو كانوا مقتصرين على صورها في اعتقاد الربوبية والإلهية لما تعدوا عنها إلى رب الأرباب "[2] اهـ.

---

(1) التفسير الكبير (١٤ / ١٨٢) .

(2) الملل والنحل (٣/ ٧٢٤) .

تكذيب القرآن :

وقفنا على معنى التوحيد عند القبوريين ، وحصرهم إياه في اعتقاد الخلق والتأثير لله عز وجل ، ولأن القرآن قد حكى هذا الاعتقاد ذاته عن المشركين عبدة الأصنام ؛ فإن القبوريين يدافعون عن عقيدتهم فيقولون : إن هؤلاء المشركين كانوا كاذبين في الإقرار لرب العالمين بالخلق والتأثير ، وذلك منهم حتى لا يتساوى المعتقدان : معتقدهم في الأموات ومعتقد عباد الأصنام .

وهكذا ركب القبوريون في الدفاع عن معتقدهم المركب الصعب حتى كُسر بهم ، فمن معاندة العقل والضرورة بنسبة المشركين إلى ما يخرجهم من جملة العقلاء وعن حد التكليف بالكلية ، إلى التكذيب بالقرآن ذاته على وجه يلزم منه إبطال حجة الله عز وجل على عباده؛ إذ جعل القرآن كله هذا الإقرار من المشركين بتفرد الله عز وجل بالخلق والتأثير ؛ مقدمةً لحجته البالغة عليهم بإفراده بالقصد والطلب، وتركِ التحقق بعبادة غيره سواء بالقول أو الفعل أو القصد ، فكم من آية توبخهم على صرف شيء من معاني التأله لغير الله عز وجل، ماداموا مقرين بأنه تعالى هو خالقهم ومالك أمرهم ومدبره على الحقيقة .

قال تعالى : M Q R S T U V W X Y

Z [\ ] ^ _ ` a b c d f g

h j k l m n o p q r s t u

v w x y z { | ~ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ

لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن © ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ

خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ ´ µ ¶ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي

ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ

تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ! " # $ % & ' (

) * , - . 0 1 2 3 4 5 L]

النمل: ٦٠ـ٦٤] .

وقال تعالى : M قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ

´ µ ¶ ¸ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ

فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا

ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ L [يونس: ٣١ــ٣٢] .

وإذا كان الله عز وجل قد أخبرنا بأن المشركين يجدون هذا الإقرار ، بل ويغلبهم في حال الشدة على أنفسهم فلا يجدون حيلة لهم في دفعه عنها ، والقبوريون يقولون بأن المشركين لا يجدون شيئاً من هذا على الحقيقة . فمن نصدق !؟

إن من بديع حجة الله عز وجل البالغة على عباده أن جعل معرفته بل وقصده مستقراً في فطرهم ، فيغلبهم عند الشدائد فتنطلق ألسنتهم بذكره ودعائه ، قال تعالى : M : ; < = > ? A B C D E
F G H I J K L M N O P QR
S T U V W Y Z [\ ] ^ _ ` a
b c d e L [سورة يونس : ٢٢] .

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ :" يقول تعالى ذكره : الله الذي يسيركم أيها الناس في البر على الظهر، وفي البحر في الفلك M A B C D E L وهي السفن M F G L يعني : وجرت الفلك بالناس M H I L في البحر ، يعني : وفرح بها ركبان الفلك بالريح الطيبة التي يسيرون بها، والهاء في قوله : M J K L عائدة على الريح الطيبة M L M

N L يقول : جاءت الفلك ريح عاصف ، وهي الشديدة . M O

P Q R S L يقول تعالى ذكره : وجاء ركبان السفينة الموج من كل

مكان M T U V W L يقول : وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم

وأحدق M Y Z [\ ] L يقول : أخلصوا الدعاء لله هنالك

دون أوثانهم وآلهتهم ، وكان مفزعهم حينئذٍ إلى الله دونها "[1]اهـ.

فتأمل كيف وصف الله عز وجل مبلغ حاجتهم واضطرارهم إليه بعد أن اجتمع عليهم زوال حال النعمة والأمن، وطرو حال الضر والخوف ، وكيف غلبهم حينئذ ما استقر في فطرهم من معرفته عز وجل ففزعوا إليه دون غيره .

ثم ساق الطبري رحمه الله بسنده إلى قتادة وابن زيد قالا :" هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون ، فإذا كان الضر لم يدعوا إلا الله ، فإذا نجاهم إذا هم يشركون ".

وأخرج الطبري بسنده إلى أبي عبيدة في قوله : M Y Z [\

] L تفسيره : يا حي يا قيوم . [يعني يقولون ذلك وينادونه تعالى به] .

---

(1) تفسير ابن جرير (١٥/ ٥٠) .

قال ابن جرير : " قوله : M ^ _ ` a b c d L لك على نعمك ، وتخليصك إيانا مما نحن فيه ، بإخلاصنا العبادة لك ، وإفـراد الطاعة دون الآلهة والأنداد "[1] أهـ.

والآن تأمل قول الطبري رحمه الله " بإخلاصنا العبادة لك ، وإفراد الطاعة دون الآلهة والأنداد " أليس هذا هو موضع الخصومة بين المـشركين ورسـلهم دون الإقرار بالخلق والتأثير ؟.

إن في هذه الآيات ما يذكرنا بالميثاق الذي أخذه الله على بني آدم في عالم الذر، قال تعالى : M 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A B C E F H J K L M N O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] ^ ` a b c d L [سورة الأعراف : ١٧٢-١٧٣] وأنه كان في توحيد الإلهية أيضاً ، وأن لهـذا الميثاق مقتضى من المعـارف مركوز في الفطر، وإن كـان قيـام

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٥٢) .

حجية هذه المعرفة موقوفاً على إرسال الرسل وإنزال الكتب(١). وفي حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَبارك

---

(١) وقد ذكرت المعاني المتعلقة بآية الميثاق على وجه أتم مما هنا في كتابي « شرح رسالة أصول السنة » للإمام أحمد (١ / ٦٠ـ٨٦) ، فأساله سبحانه أن ييسر لي أمر طباعته ، وقد ذكرت أن هذا الإشهاد كان حقيقياً وأن له مقتضى من المعارف وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما في قوله تعالى : M © ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ´ L [الروم : ٣٠] ، وكما دل عليه تفسير أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟».

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَاقْرَؤُا إِنْ شِئْتُمْ M © ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ L .

انظرالبخاري (ح/١٣٥٩) ، ومسلم (ح/٢٦٥٨) .

وإنما يأتي الرسول مذكراً بما في الفطرة من المعارف والتي هي مقتضى الميثاق الأول ، قال تعالى : M فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ L [سورة الغاشية :٢١] فالرسول صلى الله عليه وسلم شاهد مشهود له ؛ إذ تشهد الفطرة بصدق ما جاء به من إفراد الله عز وجل بالقصد والطلب ، فإرسال الرسول وتذكيره هو الميثاق الثاني ، وبه تقوم حجية الميثاق الأول حتى =

وَتَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً : لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهَا ؟. فَيَقُولُ : نَعَمْ . فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِى صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لاَ تُشْرِكَ - أَحْسَبُهُ قَــالَ - وَلاَ أُدْخِلَكَ النَّارَ

= يستحق الناكث العـذاب . قـال تعـالى : Mوَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا L [سـورة الإسراء: ١٥] وكما دلت عليه آية الميثاق ذاتها وهـذا معنـى قولـه تعـالى : M ` a b c L إذ أن الإهلاك لا يكون إلا بعد إرسال الرسل وإنـزال الكتـب ، وهـذا قـول جماعة أهل السنة .

والمقصود أن شرط إقامة الحجة بالميثاق الأول في عالم الذر تـذكره بإرسـال الرسـول؛ ولأن شرط الشيء ليس جزئه فالميثاق حجة تامة في ذاته ؛ وهذا معنى قول بعض أهل العلـم بأنـه حجة مستقلة ، فموه رجل مبتدع بذلك على الناس بـأن حجيـة الميثـاق غـير موقوفـة عـلى إرسال الرسول ، فخلط مذهب أهل السنة بصريح مذهب المعتزلة ، وراج ذلك على مـن لا يفهم فإنَّا لله وإنا إليه راجعون .

أما الإقرار بالصانع فلم يفتقر إلى إرسال الرسل ، ولم يكن أبداً عقدة الخصومة بـين الرسـل وأقوامهم ، فمع كونه مستقراً في الفطرة ، فما من شيء إلا وفيه دلالة بأن لهذا الكـون مالكـاً مسيطراً لا يكون شيء في ملكه إلا وفق إرادته ومـشيئته ، فـا نظـر كيـف قلـب القبوريـون الحقائق وزيفوها على أتباعهم .

فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ » [١].

وكذلك آثار الصحابة في تفسير الميثاق ، ومن ذلك قول أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ في صفة الإشهاد قال : قال الله عز وجل : ((اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئاً)).

ومصداق لهذا الميثاق ما أخبر سبحانه أن المشركين يجدون هذه المعرفة الضرورية اليقينية حاضرة لا يملكون دفعها عن أنفسهم ؛ كلما كانت شدة تذهلهم عن آلهتهم التي كانوا يدعون فينسونها.

قال تعالى :M o p q r s t u v w x y z { | } ~ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ © مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ L [سورة الأنعام : ٤٠-٤١] .

قال ابن جرير في قوله تعالى : M © مَا تُشْرِكُونَ L وتنسون حين يأتيكم عذاب الله [أي سننه التي قد خلت في إهلاك الأمم من قبلكم] أو تأتيكم الساعة بأهوالها ، ما تشركونه مع الله في عبادتكم إياه ، فتجعلونه له نداً من وثن و صنم وغير ذلك مما تعبدونه وتدعونه إلهاً "[٢]اهـ

---

(١) البخاري (٣٣٣٤) ، ومسلم (٢٨٠٥) .

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٣٥٤) .

إن هـذا في القرآن كثير جـداً ، ويصعب حصره ، ومقصـودنا ـ كما قلنـا ـ الإشارة دون الحصر ، وقد أخبرنـا الله عـز وجـل عـن وجـود هـذه المعـارف الضرورية لا حيلة لعباده في دفعها عن أنفسهم، وأنهـا ضـمن حجتـه البالغـة عليهم M X Y Z [ ] ^ _ ` L [الأنعام: ١٤٩] . ولا شك أنّ مَنْ قال : لا يكون لما أخبر الله عز وجـل أنـه كـائن، مكـذبٌ لله عـز وجل .

ولو كتب الله على نفسه أنه لا يعذبهم إلا بعد قيام حجته البالغة عليهم برسول وشاهدين ، أحدهما دلائل العقول ، والثاني ما يجدونه في أنفسهم من معرفته لا حيلة لهم في دفعه عنها ، لو كتب على نفسه ذلك ثم كانوا في الحقيقة لا يجدون هذه المعرفة ؛ لكان بعذابه إياهم حينئذٍ مخلفاً لوعده فيهم ، فتعالى الله عز وجل عما يقوله الجاحد المفتري .

ثم يقال لهذا الجاحد الكذاب: أيليق بالرب عز وجل مع علمه بأن عباده لا يعتقدون بموجب إقرارهم في الحقيقة أن يحكيه عنهم ومن غير أن يكذبهم فيما يدعون، ومن غير أن يدعوهم إلى التوبة من كذبهم هذا ، بل يمد لهم فيوبخهم

على تركهم ما يلزمهم في هذا الإقرار الكاذب حتى يأخذهم بموجبه أخذاً شديداً فيخلدهم في النار !؟.

فأيٌّ فرق حينئذٍ بينه تعالى وبين ملوك الدنيا الذين يغررون بالناس حتى يأخذوهم بموجب إقرارات لا يعتقدونها !؟.

فتعالى الله وعز وجل عما يقول هذا الكذاب المفتري المبدل لحقائق القرآن ، ولا شك أنه يلزمه بهذا القول من الكفر والردة عن دين الإسلام ما الله به عليم .

ومن اللطائف أن يستدل أحد عقلاء المشركين قبل أن يسلم على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المعرفة المستقرة في الفطرة ؛ معرفة الرب الخالق المالك المتفرد بالأمر والتدبير . كما في حديث ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه : فروى الليث، عن سعيد المقبري، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، أنه سمع أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول : ((بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي الْمَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ .

فَقُلْنَا : هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ .

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم :« قَدْ أَجَبْتُكَ ».

فَقَالَ الرَّجُلُ للنبي صلى الله عليه وسلم : إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ ، فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ .

فَقَالَ له النبي صلى الله عليه وسلم :« سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ ».

قَالَ الرَّجُلُ : أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ آللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ ؟

فَقَالَ :« اللَّهُمَّ نَعَمْ ».

قَالَ : أَنْشُدُكَ باللَّهَ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَة ؟

قَالَ :« اللَّهُمَّ نَعَمْ ».

قَالَ : أَنْشُدُكَ باللَّهَ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ ؟

قَالَ:« اللَّهُمَّ نَعَمْ ».

قَالَ : أَنْشُدُكَ باللَّهَ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا ؟

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم :« اللَّهُمَّ نَعَمْ ».

فقَالَ الرَّجُلُ : آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ›› [(١)].

كذا رواه البخاري ، وأخرجه مسلم ، والنسائي من طريق سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ وفيه : قال أنس : ‹‹ كُنَّا نُهِينَا فِي الْقُرْآنِ أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ شَيْءٍ ؛ فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ الْعَاقِلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَيَسْأَلَهُ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَتَانَا رَسُولُكَ فَأَخْبَرَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَكَ ؟

قَالَ : صَدَقَ .

قَالَ : فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ ؟

قَالَ : اللَّهُ .

قَالَ : فَمَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ؟.

قَالَ : اللَّهُ .

قَالَ : فَمَنْ نَصَبَ فِيهَا الْجِبَالَ ؟

قَالَ : اللَّهُ .

قَالَ : فَمَنْ جَعَلَ فِيهَا الْمَنَافِعَ ؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣) .

قَالَ : اللَّهُ .

قَالَ : فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَنَصَبَ فِيهَا الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا الْمَنَافِعَ آللَّهُ أَرْسَلَكَ ؟.

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ؟

قَالَ : صَدَقَ .

قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا ؟

قَالَ : نَعَمْ ... الحديث [١].

قلت : حتى لو كان قول ضمام ((آمنت بما جئت به)) خبراً وليس ابتداء انشاء للإسلام فقد جاء متثبتاً ، فتأمل كيف استدل هذا الأعرابي العاقل كما يصفه أنس على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، بل وكيف احتاط لنفسه فشدد على النبي صلى الله عليه وسلم في المسألة بهذه المعارف الضرورية اليقينية التي يشترك الناس في اعتقادها فلا ينكرها أحد ؛ إذ لو كانت موضع خصومة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين قومه لما كان في بناء ضمام عليها مزيد عقل وتثبت ، ولما كان في استدلاله بها موضع حجة واحتياط .

---

(١) مسلم (ح/١٢) ، والنسائي (٤/ ١٢١) .

والحق أن هذه المعارف لم تكن أبداً موضع خصومة بين أي من رسل الله عز وجل وبين قومه . فإن نوحاً ـ عليه السلام ـ وهو أقدم الرسل لما دعا قومه إلى عبادة الله عز وجل وحده ، قالوا : M v w x y z { | } ~ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ © ٱلْأَوَّلِينَ L [المؤمنون : ٢٤] . ومن تأمل هذا الجواب لا يشك أن القوم كانوا عارفين بربهم بل وبملائكته تعالى ، ومقرين بوجوب طاعته تعالى عليهم ، وأن خصومتهم مع نبيهم والتي أنكروا من أجلها نبوته لم تكن حول الإقرار بوجود الله عز وجل وأنه خالقهم .

فتأمل ما سبق من بيان الكتاب والسنة ؛ ثم سل : أيليق بعاقل يدري ما يقول أو حتى بعض ما يقول ، أن يدعي بأن الخصومة بين الأنبياء والمرسلين وبين أقوامهم ، كانت في إثبات وجود الله عز وجل ، وأنه خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم على الحقيقة !؟.

وقفة مع صاحب المفاهيم :

يقول محمد علوي المالكي صاحب المفاهيم : " وهنا مهمة لا بد من بيانها وهي أن هذه الآية تشهد بأن أولئك المشركين ما كانوا جادين فيما يحكي ربنا عنهم من قولهم مسوغين عبادة الأصنام M ` a b c d e f L [الزمر: ٣] فإنهم لو كانوا صادقين في ذلك لكان الله أجل عندهم من تلك الأصنام ، فلم يعبدوا غيره ، وقد نهى الله المسلمين من سب أصنامهم بقوله تعالى : M | { } ~ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ´ µ ¶ ﺩ ﴿١٠٨﴾ L [الأنعام:١٠٨]....فهي إذن تنهي المؤمنين نهي تحريم شديد أن يقولوا كلمة نقص في الحجارة التي كان يعبدها الوثنيون بمكة المشرفة ، لأن قول تلك الكلمة يتسبب عنه غضب أولئك الوثنين غيرة على تلك الأحجار التي كانوا يعتقدون من صميم قلوبهم أنها آلهة تنفع وتضر، وإذا غضبوا قابلوا المسلمين بالمثل فيسبون ربهم الذي يعبدونه وهو رب العالمين ، ويرمونه بالنقائص وهو المنزه عن كل نقص، ولو كانوا صادقين بإن عبادتهم

لأصنامهم تقربهم إلى الله زلفى ما اجترؤا أن يسبوه انتقاماَ ممن يسب آلهتهم، فإن ذلك واضح جداَ في أن الله تعالى في نفوسهم أقل من تلك الحجارة .

وقل في ذلك أيضاَ في قوله تعالى : M t u v w x y z { L [سورة الزمر : ٣٨] فإنهم لو كانوا يعتقدون حقاَ أن الله تعالى الخالق وحده وأن أصنامهم لا تخلق لكانت عبادتهم لله وحده دونها أو لكان على الأقل احترامهم له تعالى فوق احترامهم لتلك الحجارة، وهل هذا يتفق مع شتمهم له عز وجل غيرة على حجارتهم وانتقاماَ لها منه سبحانه وتعالى ؟ إن البداهة تحكم أنه لا يتفق أبداَ .." [1]ا.هـ .

تأمل هذا المنهج في الإستدلال تر عجباً ، وانظر كيف حاد صاحبه نصوص القرآن التي لا تحتمل تأويلاً، بترهات من وحي خياله مدارها على (لم) و(كيف) ، فقام في الناس يسأل : كيف يعتقد المشركون هذا الإعتقاد المخالف لبداهة العقول ؟.

فانظر كيف عول كثيراَ على عقل المشركين ؛ حتى قدمه على النص القرآني المحكم الدلالة ، وكأنه لم يسمع لقول الله عز وجل يصف هؤلاء المشركين في

([1]) مفاهيم يجب أن تصحح (ص٢٦) .

كثير من آيات القرآن بأنهم 3M 4 L وكأنه لم يسمعه تعالى يصفهم بالعمى كما في قوله تعالى : M**فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾** L [الحج : ٤٦] وكأنه لا يعلم بأنه تعالى لا يخلدهم في النار وهو أرحم الراحمين إلا على أمر خرجوا به عن حد المعقول ، وخالفوا فيه الرسول والعقل والفطرة جميعاً ، وسنعرض ـ إن شاء الله ـ بعد قليل لطرف من أقوال بعض القبوريين يمجها العقل وتستقذرها النفس ، في حكايات سفيهة ؛ قدم فيها القبوريون توقيرهم لأوثانهم على توقيرهم لرب العالمين ، فانظرها تقف على جواب لهذا السائل المحتج على دلالة القرآن المحكمة بما يعقل وما لا يعقل من المشركين ، حتى أتى بقول عجيب إذ قال فيما حكينا عنه آنفاً : " **فإنهم لو كانوا يعتقدون حقاً أن الله تعالى هو الخالق وحده ، وأن أصنامهم لا تخلق لكانت عبادتهم لله وحده دونها ، أو لكان على الأقل احترامهم له تعالى فوق احترامهم لتلك الحجارة ...** "اهـ .

فزعم أن مشركي العرب كانوا يعتقدون وهم ينحتون الأصنام بأيديهم ، وربما من عجوة ، حتى إذا جاع أحدهم أكل صنمه ، أنهم ينحتون خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم ؛ فأتى في سبيل تقريره لما يصح في بداهة العقول وما لا

يصح ، بقول فريد يضحك منه الجن والإنس عربهم وعجمهم، قد كذبه فيه القرآن بآيات محكمات بينات واضحات .

إذا يلزمه أنه يجوز ـ لا يمتنع ـ في بداهة العقول عنده أن ينحت الرجل خالقه ورازقه ومدبر أمره ، ثم إذا جاع أكله ، يلزمه هذا إذ شيد مذهبه على ما يصح وما لا يصح في بداهة العقول ؛ فمنع بحكم البداهة أمراً ولم يمنع آخر، منع أن يعبد الرجل مع خالقه غيره ، ولم يمنع أن يعتقد نحت خالقه ومدبر أمره ؛ وهذه لعمر الله معرة الدهر وخيبة العمر .

فإن تعجب فعجب حال رجل ينزه أحلام مشركي العرب عن نظير ما سفه به خليل الله إبراهم قومه M قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ © L [سورة الصافات : ٩٥-٩٦]، ثم لم يلبث أن رماهم بداهية تخرجهم عن حد العقلاء جملة ، فقال: لابد أنهم يعتقدون أن هذا الصنم المنحوت ـ وربما من عجوة ـ هو خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم على الحقيقة وإلا لما عبدوه . فكان هذا غير ممتنع عنده في بداهة العقول فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وأعجب من هذه الرزية في العقل والدين تقريظ فئام من الناس لكتاب الرجل بالثناء العاطر وفيه هذه العظيمة ، فانظر للهوى كيف يعمي ويصم .

وانظر إلى هذا المنهج في الاستدلال ثم اعرضه على الآيات وأقوال المفسرين في وصف ما كان عليه عبدة الأصنام ، ثم سل : هل حكوا عن أحد من العقلاء أو حتى من غيرهم أن الصنم المنحوت في هذه الساعة يخلق أرضاً وسماء وأنعاماً وعرباً وعجماً ... !؟

وحتى لو قصد هذا الحاكي معتقد المشركين أن هذه الأوثان أعلام عندهم على أرباب تخلق ـ بزعمهم ـ وترزق وتدبر الأمر ، حتى لو نسب للمشركين هذا الاعتقاد لما خرج عن معاندة الضرورة ، إذ لم يمتنع عنده في حكم البداهة إثبات صفة الخلق للمخلوق المسبوق بالعدم ، ولا كان هذا عنده من محالات العقول التي يتنزه عنها أهل التكليف .

ولأن كثيراً من أتباعه من مدعي الأشعرية فلنأت لهم بشاهد من أهلها على غائلة شيخهم ، قال الرازي: " واعلم أن هنا بحثاً لا بد منه ، وهو أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأصنام ، والدليل أن أقدم الأنبياء الذين وصل إلينا تواريخهم على سبيل التفصيل هو نوح عليه السلام ، وهو إنما جاء بالرد على عبدة الأصنام ، كما قال تعالى حكاية عن قومه أنهم قالوا : M u v w
x y z { | } ~ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا L [سورة نوح : ٢٣]

وذلك يدل على أن دين عبدة الأصنام قد كان موجوداً قبل نوح عليه السلام ، وقد بقي هذا الدين إلى هـذا الزمان ، فـإن أكثر أطراف الأرض مستمرون عـلى هذا الدين ، والمذهب الذي هذا شأنه يمتنع أن يكون معلوم البطلان في بديهة العقول " ا هـ .

قلت : فهذا غير الممتنع في بداهة العقول .

ثم قال الرازي : " لكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الذي خلقني وخلق السماء والأرض علم ضروري ، والعلم الضروري يمتنع إطباق الخلق الكثير على إنكاره " اهـ .

قلت : وهذا هو الممتنع في بداهة العقول .

ثم قال الرازي مفسراَ ما مر : " فظهر أنه ليس دين عبدة الأصنام كون الصنم خالقاً للسماء والأرض ، بل لابد وأن يكون لهم فيه تأويل "[1]اهـ .

ثم ذكر وجوهاَ في هذا التأويل .

فهذه شهادة فليسوف الأشاعرة على المالكي بأنه قد نحكش المنقول وقلب المعقول وخرج إلى عظيمة في العقـل والـدين بنـسبة مـشركي العـرب إلى مـا

---

(1) انظر التفسير الكبير (١٣ / ٢٠) .

يخرجهم من ديوان المكلفين، وانظر إلى ما تقدم من قول الرازي : " ومن شك في ذلك لم يكن كامل العقل "[1] ، وقول الـشهرستاني : " وإلا فنعلم قطعاً أن عاقلاً ما لا ينحت بيده خشباً صورة، ثم يعتقد أنه إلهه وخالقه وخالق الكل؛ إذ وجوده مسبوق بوجود صـانعه وشـكله محـدث بـصنعة ناحته "[2]اهـ .

ومن تمام شهادة الرازي على المالكي قوله : " اعلم أنه ليس في العالم أحد يثبت لله تعالى شريكاً يساويه في الوجوب[3]، والقدرة، والعلم، والحكمة لكن الثنوية يثبتون إلهين ، أحدهما حكيم يفعل الخير ، والثاني سفيه يفعل الشر ، وأما الاشتغال بعبادة غير الله ففي الذاهبين إليه كثرة" [4]اهـ.

وقوله بأن الذين أثبتوا شريكاً لله من الناس ثلاثة طوائف : عبدة الأصنام ، والدهريون ، والثنوية .

ثم قال في وصف شرك عبدة الأصنام :" فالطائفة الأولى عبدة الأصنام فهم

---

(١) يعني شك في أن الصنم لا يخلق ولا يؤثر ، انظر قوله ص ١٦.

(٢) انظر ص١٦ .

(٣) يعني أن الله عز وجل واجب بنفسه لا بغيره .

(٤) التفسير الكبير (١٣ / ٢٩) .

يقولون : الأصنام شركاء الله في العبودية ، ولكنهم معترفون بأن هـذه الأصنام لا قدرة لها على الخلق والإيجاد والتكوين "[1] اهـ.

لا شك أن شهادة الرازي على المالكي وعلى من تركهم من خلفه قاطعة في أن الخصومة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قريش عبدة الأصنام لم تكن في الإقرار بالصانع وأنـــه الخـــالق المستقل بالإيجاد والتأثير على الحقيقة؛ فهي قاطعة على بطلان فهم القبوريين لأصل الإسلام .

حيل أهل البدع :

لبعض أهل البدع حيل أشبه بحيل السحرة والحواة؛ ولبعضهم حيل أشبه بشغب الصبيان ، وأنا ذاكر لك من كل صنف مثالاً :

المالكي يقلب الفرع أصلاً :

من أين أتى صاحب المفاهيم بهذه الشبهة العجيبة التي لم يسبقه إليها عاقل فضلاً عن عالم من علماء البيان عن معاني القرآن !؟

الجواب : من الرازي نفسه ! وهذا غاية العجب ، فإن أصل دليل صـاحب المفاهيم كان استشكالاً استشكله الرازي في تفسير قوله تعـالى : M | {

(١) التفسير الكبير (١٣/ ٩٢) .

~ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ L [سـورة الأنعـام :١٠٨] لآية . فأخذه المالكي منه لكن قلبه ـ كما سترى ـ وجعله دليلاً ، جرياً على عادة أصحاب الشبه في البحث والتنقيب عنها .

قال الرازي : أقول : " لي هنا اشكالان :... الثاني : أن الكفار كانوا مقرين بالإلَه تعالى وكانوا يقولون : إنما حسنت عبادة الأصنام لتصير شفعاء لهم عند الله تعالى ، وإذا كـان كـذلك : فكيـف يعقـل إقـدامهم عـلى شـتم الله تعـالى وسبه؟ " [١]اهـ.

فالرازي كما ترى يقرر أصلاً راسخاً وهو إقرار المشركين بأن الله هو الخالق وأن الأصنام ما هي إلا شفعاء لهم عنـد الله ، ثـم استـشكل في ضـوء هـذا الأصـل المقـرر: كيف يسبون من يعتقدون أنه خالقهم !؟

قال الـرازي : " واعلم أنا قد دللنا على أن القوم كانوا مقرين بوجود الإلَه تعالى فاستحال إقدامهم على شتم الإله بل هنا احتمالات ..." اهـ

فأخذ المالكي هذا الإشكال الذي يبحث لـه الـرازي عـن حـل يتفـق مـع الأصل الذي دل عليه القرآن من أولـه إلى آخـره ، وعليـه مـدار حجتـه عـلى

---

(١) التفسير الكبير (١٣/ ١١٤) .

المشركين بأنهم بعبادتهم غير الله عز وجل لا يعقلون ، فقلبه ـ المالكي ـ وجعله دليلاً على نقض هذا الأصل فقال : لو كانوا مقرين بأن الله خالقهم ما سبوه .

وبينما يجعل الرازي ما يخالف هذا الأصل المتيقن إشكالاً مشغولاً بالاحتمالات ، يقلب المالكي هذا المحتمل أصلاً ليسقط به المعنى المتيقن المجمع عليه من ألفاظ القرآن .

ولقد تصرف أهل التفسير فيما استشكله الرازي على وجوه :

قال الراغب الأصفهاني : " إن سبهم لله تعالى ليس أنهم يسبونه جل شأنه صريحاً ، ولكن يخوضون في ذكره تعالى ويتمادون في ذلك بالمجادلة ، ويزدادون في وصفه سبحانه بما ينزه تقدس اسمه عنه . وقد يجعل الإصرار على الكفر والعناد سباً ، وهو سب فعلي ، قال الشاعر :

وما كان ذنب بني مالك * بأن سب منهم غلام فسب

بأبيض ذي شطب قاطع * يَقُطُ العظام ويبري العصب

ونبه به على ما قال الآخر : ونشتم بالأفعال لا بالتكلم .

وقيل : المراد بسب الله تعالى : سب الرسول صلى الله عليه وسلم ونظير ذلك من وجه قوله تعالى: M ! " # $ % & L [سورة الفتح : ١٠] "(١)اهـ.

وقال ابن الجوزي : Mفَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ L أي : فيسبوا من أمركم بعيبها ، فيعود ذلك إلى الله تعالى ، لا أنهم كانوا يصرحون بسب الله تعالى، لأنهم كانوا يقرون أنه خالقهم، وإن أشركوا به "(٢)اهـ.

هكذا تصرف الأصبهاني وابن الجوزي ، فكيف تصرف الرازي نفسه في هذا الإشكال ؟

قال الرازي : " بل هنا احتمالات :

أحدها : أنه ربما كان بعضهم قائلاً بالدهر ، ونفي الصانع فما كان يبالي بهذا النوع من السفاهة .

وثانيها : أن الصحابة متى شتموا الأصنام ، فهم كانوا [المشركون] يشتمون الرسول عليه الصلاة والسلام ، فالله تعالى أجرى شتم الرسول مجرى

---

(١) انظر مفردات القرآن ص٢٢٦.

(٢) زاد المسير (٢/ ٣٩١) .

شتم الله تعالى كما في قوله : M ! " # $ % & L وكقوله:

M Q R S T U L [سورة الأحزاب : ٥٧].

وثالثها : أنه ربما كان في جهالهم من كان يعتقد أن شيطاناً يحمله على ادعاء النبوة والرسالة ، ثم إنه لجهله كان يسمي ذلك الشيطان بأنـه إلَـه محمـد عليـه الصلاة والسلام ، فكان يشتم إلَه محمد بناء على هذا التأويل "[1] اهـــ.

لقد نقل ابن عاشور إشكال الرازي و أجوبتة عليـه ، ثـم قـال : " ويـدفع الإشكال الثاني أن المشركين قالوا: لئن لم تنته عن سب آلهتنا لنهجـونّ إلهـك ، ومعناه أنهم ينكرون أن الله هو إلهه ولذلك أنكـروا الـرحمن M X Y Z

[\ ] ^ _ ` a b c d e f L

[سورةالفرقان : ٦٠]. فهم ينكرون أنّ الله أمره بذم آلهتهم لأنهم يزعمون أن آلهتهم مقربون عند الله ، وإنما يزعمون أن شيطاناً يأمر النبي صـلى الله عليـه وسلم بسب الأصنام، ألا ترى إلى قول امرأة مـنهم لمـا فـتر الـوحي في ابتـداء البعثـة : ما أرى شيطانه إلا ودعه ، وكان ذلك ســبب نــزول ســورة الضحى .

---

(١) تفسير الرازي (١٣/ ١١٥) .

وجواب الفخر عنه : بأن بعضهم كان لا يثبت وجود الله وهم الدهريون ، أو أن المراد أنهم يشتمون الرسول عليه الصلاة والسلام فأجرى الله شتم الرّسول مجرى شتم الله كما في قوله تعالى : M ! " # $ % & L [سورة الفتح : ١٠] فإن في هذا التّأويل بعداً لا داعي إليه "[١]اهـ.

إن هذا كله يبدو من التفسير المقبول المحتمل الذي يردع مَنْ به مسكة من عقل عن إسقاط الأصل المتيقن من ألفاظ القرآن ومعانيه ، وهو اعتقاد المشركين بأن الله عز وجل هو خالقهم ومدبر أمرهم لا الأصنام .

بل ومن المفسرين من أجرى الكلام على ظاهره ولم ير ذلك مانعاً من ثبوت هذا الأصل ، وإلى هذا ذهب أبو حيان فقال : " وظاهر قوله : Mفَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ L أنهم يقدمون على سب الله إذا سُبت آلهتهم ، وإن كانوا معترفين بالله تعالى ، لكن يحملهم على ذلك انتصارهم لآلهتهم وشدة غيظهم لأجلها فيخرجون عن الاعتدال إلى ما ينافي العقل ، كما يقع من بعض المسلمين إذا اشتد غضبه وانحرف فإنه قد يلفظ بما يؤدي إلى الكفر نعوذ بالله من ذلك ....

ثم ذكر أبو حيان أجوبة الرازي ثم قال : وإنما أوردها ـ يعني الرازي ـ لأنه

---

(١) انظر التحرير والتنوير (٦ /٢٦٣) .

ذكر أن المعترفين بوجود الصانع لا يجسرون أن يقدموا على سبه تعالى وقد ذكرنا ما يحمل على حمل الكلام على ظاهره " [1]اهـ.

يعني هذا أن أبا حيان أسقط الإشكال من أصله ولم يره قائماً ؛ باعتبار أن المشركين من السفهاء الذين لا يعول على عقولهم ، فقد يحملهم الغيظ على سب الله عز وجل وإن كانوا معتقدين بأنه خالقهم ، وقال بأن نحو هذا موجود في بعض السفهاء ممن ينسب نفسه إلى الإسلام . وسيأتي معنا أن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حمل السب على ظاهره ، وجعله من باب حب الأنداد أكثر من حب الله عز وجل[2] .

الشاهد من كل ما سبق أن أحداً لم يجسر على ما جسر عليه المالكي من إسقاط الأصل المتيقن من ألفاظ القرآن ومعانية ، وهو اعتقاد المشركين بأن الله عز وجل هو خالقهم ومدبر أمرهم لا الأصنام ، وإنما كان سعي أهل البيان عن معاني القرآن في حل الإشكال في ضوء هذا الأصل المقرر وبما لا يتعارض معه .

---

(١) البحر المحيط (٤ / ٢٠٢) .

(٢) انظر ص١٧٧ .

بقي للمالكي وأنصاره عند علماء البيان عن معاني القرآن معنى الكذب الذي ختم به رب العالمين الآية فقال: qM r s t u v w x L

قال الطبري : " القول في تأويل قوله تعالى: qM r s t u v w x y z { | } ~ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ © اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ L [سورة الزمر : ٣ -٤] .

يقول تعالى ذكره: qM r s t L إلى الحق ودينه الإسلام ، والإقرار بوحدانيته ، فيوفقه له M u v w L مفتر على الله ، يتقول عليه الباطل ، ويضيف إليه ما ليس من صفته ، ويزعم أن له ولداً افتراء عليه M x L لنعمه، جحوداً لربوبيته "[1]اهـ.

وقال البغوي : " qM r s t u v w x L لا يرشد لدينه من كذب فقال : " إن الآلهة تشفع "، وكفى باتخاذ الآلهة دونه كذباً وكفراً "[2]اهـ.

---

(١) تفسير ابن جرير (٢١/٢٥٢) .

(٢) معالم التنزيل (٧/١٠٨) .

وقال الرازي : " والمراد بهـذا الكـذب وصـفهم لهـذه الأصـنام بأنهـا آلهـة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها، والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الأشياء بالإلهية كذب محض ، وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفـر الراجـع إلى الاعتقـاد والأمـر ههنـا كذلك فـإن وصـفهم لهـا بالإلهيـة كـذب ، واعتقـادهم فيهـا بالإلهيـة جهـل وكفر " [1]اهـ.

وقال أبو حيان : " qM r s t u v w x L كاذب في دعــواه أن لله شريكــاً ، كفــار لأنعــم الله حيــث ، جعــل مكــان الــشكر الكفر" [2]اهـ.

فالكذب في الآية عند أهل البيان عن معاني القـرآن ـ كـما تـرى ـ وصـفٌ لذات المعتقدات الباطلة للمشركين ، من إثبات الشريك لله وإثبات شـفاعة لم يأذن بها للأصنام ، فإن هذا كله مـن التقـول عـلى الله والافـتراء عليـه ، لا أن المشركين كانوا يقولـون خـلاف مـا يعتقـدون ، كـما مـوه بهـذا بعـض غـلاة

---

(١) التفسير الكبير(٢٦/ ٢١١) .

(٢) البحر المحيط (٧/٣٩٨) .

القبوريين ، إذ لم يتأخر هؤلاء المفسرون ـ كما ترى ـ عن إثبات اعتقاد مشركي العرب بأن الأصنام مجرد شفعاء ، وأن الخالق المالك المتصرف على الحقيقة هو الله عز وجل .

فهذا صنف من الحيل ، أما إذا أردت الأشبه بشغب الصبيان فانظر إلى :

محمود يتزي بزي المعترض :

يقول محمود سعيد : " وقال تعـالى :M قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ ´ µ ¶ ¸ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ L [سورة يونس : ٣١-٣٢] .

وفي الآيات القرآنية المتقدمة جاءت إجابة المشركين تحمل معنى الاستقبال المنافي للإقرار الدال على المعرفة ، فجاء التعبير القرآني بقوله تعالى : Mفَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ L فالآيات فيها حجج تحث المشركين على الإيمان الحقيقي بالله تعالى ، لأنه وحده الرزاق الذي يملك السمع والأبصار ، وهو وحده الذي يحيي ويميت ، ولو كان المشركون يعتقدون ذلك في الله اعتقاداً جازمـاً لكـان الـنص القـرآني

جاء معبراً عن حالهم بقوله M لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L . وذلك كما جاء النص القرآني مبيناً أن بعض المشركين يعتقدون بأن الله خالق السماوات والأرض .

ففي العنكبوت M { ~ مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ L [سورة العنكبوت : ٦١] فكان نص القرآن M لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L صريحاً في اعتقادهم أن الله هو خالق السماوات والأرض ، فتدبر الفرق بين سيقولون ، وليقولن .

ثم انظر إلى موضع آخر في سورة الزمر ، وقد أفادت فيه الآيات القرآنية الاتفاق على أن الله خالق السماوات والأرض ، ومتدرجة مع المشركين إلى ما يؤدي إلى الإيمان الكامل بالله تعالى : قال تعالى في سورة الزمر M t u v w x y z { | } ~ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ © هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ ´ ¶ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ L [سورة الزمر : ٣٨-٤٠].

فالجواب عن خلق السماوات والأرض جاء التعبير عنه بقوله تعالى :
M لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L ولذلك دعاهم القرآن الكريم للإيمان بأمور أخرى .

والفرق كبير بين هذا الجواب ، وبين الجواب المتقدم عن عناصر الإيمان الأخرى فسيقولون الله فتدبر .

ومن النصوص المتشابهة المتقدمة قوله تعالى في سورة المؤمنون : M قُل لِّمَنِ
ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ © ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٨٥﴾ قُلْ ´ µ ¶ ¸ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ
قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ! "
$ % & ' ( ) * + , - . / 0 2
3 4 5 6 7 8 9 : ; = > ? @ A L
[المؤمنون : ٨٤ ــ ٩١] .

اشتملت الآيات القرآنية الكريمة على ثلاثة أسئلة ، وجاء النص القرآني في الإجابة عنها بقوله تعالى : M فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ L ، وهو صريح في أن الإجابة الصحيحة ليست حاضرة في أذهان المشركين ، ولكنهم سيقولونها مستقبلاً

بعد إقامة الحجج عليهم ، فلو كـانوا يؤمنـون بـالله حـق الإيـمان ، ويعرفـون عناصر ما يجب له ، لكانت إجابتهم على الأسئلة الثلاثة هي Mلَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L .

والحاصـل أن بعـض المـشركين كـانوا يؤمنـون بـأن الله خلـق الـسماوات والأرض ، وعليه التعبير القرآني في عدة مواضع بقوله تعالى: Mلَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L .

بينما لا يؤمنون بما يجب لله إيماناً كاملاً وعليه التعبير القرآني بقولـه تعـالى : Mفَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ L

والذين قالوا إن مشركي العرب كانوا يؤمنـون إيمانـاً كـاملاً بـالله تعـالى لم يفرقوا بين العبارة الحالية والمستقبلية ، بالإضافة لأمور أخرى سبق شرحها في المبحث الثاني .

ولنختم هذا المبحث بقوله تعالى في سورة العنكبـوت: M 7 8 9

: ; < = > @ A B C D E F G H

I J K L M N O P R S T L [سورة العنكبـوت : ١٧] فلو كان الكفـار يعتقـدون أن الله هـو الـرزاق لمـا أمـرهم الله بابتغاء الرزق عنده وحده ، ولكن لما كانوا يطلبونه من آلهتهم أمرهم الله تعالى

بابتغاء الرزق من عنده ومجانبة هذا النوع من الـشرك فـافهم والله المـستعان " انتهى كلام محمود سعيد[١] .

قلت : لقـد صـبرنا عـلى نقـل هـذه الترهـات بتمامهـا والآن جـاء وقـت الانتصاف . فنقول : لمحمود في هذه الترهات دعاوى :

الأولى : يدعي محمود سعيد على من يسميهم بالوهابية التيميـين أنهـم أول من أحدث القول بأن مشركي العرب كانوا موحدين للربوبية .

الثانيـة : يـدعي محمـود سـعيد الفـرق في الـصيغ بـين (ليقـولنّ) وبـين (فسيقولون) بأن الأولى تفيد الاعتقاد الجازم بالإقرار الدال على المعرفـة دون الثانية التي تفيد الاستقبال المنافي للإقرار الدال على المعرفة .

الثالثة : يدعي محمود سعيد بأن بعض مشركي العرب اعتقـد نـسبة خلـق السماوات والأرض لله عز وجل اعتقـاداً جازمـاً وعليـه التعبـير بــ Mلَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L أما غير ذلك من معاني الربوبية كالرزق فلـم يعتقـدوه اعتقـاداً جازمـاً وعليه التعبير بـ Mفَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ L واستظهر على ذلك بآية سورة العنكبوت .

---

(١) كشف الستور ص ٣٣.

الرابعة : يدعي محمود سعيد أن بعض مشركي العرب كان يعتقد نسبة الخلق لغير الله عز وجل بدلالة التعبير القرآني في بعض المواضع بـ M فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ L كما في سورة المؤمنون M قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ L .

وقد قال محمود بالنص : " إن بعض المشركين كانوا يؤمنون بأن الله خالق السماوات والأرض " اهـ.

وهذا ـ كما ترى ـ صريح بأن البعض الآخر كان لا يعتقد ذلك ، والكلام بالطبع عن مشركي العرب الذين أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمخاطبتهم وتوجيه السؤال إليهم ، فإذا كان ذلك كذلك لم يبق لمحمود إلا التردي في غائلة شيخه المالكي في نسبته مشركي العرب إلى اعتقاد خلق الأصنام للسماوات والأرض ومن فيهن ، وهذه فضيحة أخرى مستقلة تزري بعقل ومذهب صاحبها . وقد تقدم الكلام في هذا .

ثم تأتي هنا مع هذه الدعاوى وقفات :

الوقفة الأولى : أن نصوص أئمة التفسير تنادي على دعاوى محمود سعيد كلها بأنها أشبه بالهزل منها بالجد . ونحن سنتعرض هنا بشيء من التحليل

لأحد نصوص إمام المفسرين الإمام ابن جرير الطبري كنموذج نعـرض عليـه دعاوى محمود سعيد .

يقول ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ في تأويل قوله تعـالى :M x y
z { | } ~ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا
© فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ L [سورة البقرة : ٢٢] .

ذكر من قال: عني بذلك أهل الكتابين :

٤٨٨ - حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا وكيع، عن سفيان، عن رجـل، عـن مجاهد : Mفَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ L ، أنه إله واحد في التـوراة والإنجيل.

٤٨٩ - حدثني المثنى بن إبراهيم، قال: حدثنا قبيصة، قال: حدثنا سـفيان، عن مجاهد، مثله .

٤٩٠ - حدثني المثنى، قال: حدثنا أبو حُذيفة، قال: حدثنا شبل، عـن ابـن أبي نَجيح، عن مجاهد: Mوَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ L يقول: وأنتم تعلمون أنه لا ندّ لـه في التوراة والإنجيل .

قال أبو جعفر: " وأحسب أن الذي دعا مجاهداً إلى هذا التأويـل، وإضـافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم - الظن منه بـالعرب

أنها لم تكن تعلم أن الله خالقها ورازقها، بجحودها وحدانيةَ ربهـا، وإشراكهـا معه في العبادة غيره. وإن ذلك لقولٌ! ولكن الله جل ثناؤه قـد أخـبر في كتابـه عنها أنها كانت تُقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها، فقال جل ثناؤه: M وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L [سورة الزخرف: ٨٧]

وقـــال: M قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ ´ µ ¶ ¸ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ L [سورة يونس: ٣١].

فالذي هو أولى بتأويل قوله: : M وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ L - إذْ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله، وأنه مُبدع الخلق وخـالقهم ورازقهـم، نظـير الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين، ولم يكن في الآية دلالة عـلى أنّ الله جـل ثناؤه عني بقوله: M وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ L أحد الحزبين، بل مخرج الخطاب بذلك عام للناس كافة لهم، لأنه تحدى الناس كلهم بقولـه: M l m n o p q r s t u v w L [سورة البقرة: ٢١] - أن يكون تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة، من أنه يعني بذلك كـل مكلـف، عـالم

بوحدانية الله ، وأنه لا شريك له في خلقه، يشرك معه في عبادته غيره[1]، كائناً من كان من الناس، عربياً كان أو أعجمياً، كتاباً أو أمياً، [2]اهـ.

ففي قول الطبري ـ رحمه الله ـ ما يكسر دعاوى محمود سعيد كسراً لا جابر له ، فمن ذلك :

أولاً : استعمل الطبري الذي بين وفاته ووفاة محمد بن عبد الوهاب ما يقرب من الألف عام لفظ (الوحدانية) في وصف ما كان عليه مشركو العرب من الاعتقاد في ربوبية الله عز وجل وفسر ذلك بقوله : إنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم :

قال الطبري ـ رحمه الله ـ : " ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها أنها كانت تقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها "

وقال : " فالذي هو أولى بتأويل قوله : ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ - إذْ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله، وأنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم"

وقال :" أن يكون تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة من أنه يعني بذلك كل

(١) جملة " يشرك معه في عبادته غيره " صفة لقوله " كل مكلف " يعني كل مكلف يشرك في عبادة الله غيره مع علمه بوحدانية الله وأنه لا شريك له في خلقه .

(٢) تفسير الطبري (١ / ٣٧٣) .

مكلف عالم بوحدانية الله وأنه لا شريك له في خلقه يشرك معه في عبادته غيره"

وهذا كفلق الصبح أن توحيد الربوبية وحده ـ عند الطبري على الأقل ـ لا ينقل عن الكفر مَنْ كان يشرك في عبادة الله غيره .

فانظر هذا وقارنه بشغب محمود سعيد وهو يدعي على الوهابية التيميين ـ كما يسمي السلفيين ـ بأنهم أول من أحدث هذا الوصف لما كان عليه مشركو العرب .

ثم إن الطبري لم يمنعه أن يصف ما كان عليه مشركو العرب من الإقرار لله عز وجل بالخلق والرزق بالوحدانية ، مع أنهم كانوا يثبتون شفيعاً لم يأذن به الله عز وجل ، وهذا شرك في بعض معاني الربوبية ، قال تعالى : M قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ ! " # $ % & ' (L [سور سبأ : ٢٢] .

ففي الآية ذكر أنواع الشرك في الربوبية المفضية للشرك في الإلهية ، وهي اعتقاد الملك ، أو الشراكة فيه، أو الظهير المعاون، أو الشفيع غير المأذون له ،

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ الكلام على هذه الشفاعة [1].

وفي هذا ما يجعل تشنيع محمود سعيد وأصحابه على من سماهم بالوهابية التيميين في كتابه سالف الذكر ، بأنهم ابتدعوا إثبات توحيد الربوبية للمشركين ، شيئاً أشبه بشغب الصبيان منه بالعلم والبيان ، فهاهو ذا الطبري يثبت التوحيد في بعض معاني الربوبية لمن أشرك في بعض آخر، فضلاً عن نصه في إشراكهم بعبادتهم غير الله عز وجل .

أما قول الطبري : " وأحسب أن الذي دعا مجاهداً إلى هذا التأويل ، وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم - الظن منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أنّ اللهَ خالقها ورازقها، بجحودها وحدانية ربِها، وإشراكها معه في العبادة غيره." أهـ.

فهذا ظن منه قد صدره عن مجاهد بقوله (وأحسب) ولم يكن قولاً منقولاً عن مجاهد ، بل المنقول عنه ما يدل على خلاف ذلك ، فأخرج ابن جرير بسنده إلى مجاهد في قوله تعالى : M ` a b c d e f L .

قال : قريش تقوله للأوثان ، ومن قَبلهم تقوله للملائكة ولعيسى بن مريم

---

(١) انظر ص٨٥ .

وعزير "[1]اهـ.

وهذا يدل على قول مجاهد بأن مشركي العرب كانوا كأهل الكتاب في الإقرار بربوبية الباري سبحانه وتعالى .

وليس يلزم من الإحالة في ثبوت وحدانيته وأنه لا ند له إلى الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل ، القول بأن العرب لم تكن تعرف بربوبية الله عز وجل لهم وأنه خالقهم ورازقهم على الحقيقة .

والمقصود أنه ليس في كلام مجاهد ثمة إشكال ، وقد كان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة يقولان : " وأنتم تعلمون أن الله خلقكم " . فكلام مجاهد في معنى غير المعنى الذي ذكره ابن عباس وقتادة ، فالأول في العلم بانتفاء الشريك والند ، والثاني في العلم بأنه تعالى الخالق الرازق المدبر على الحقيقة .

ثانياً : استدل الطبري على ما وصف من اعتقاد العرب بالآيات التي فيها قوله تعالى Mلَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L وبالآيات التي فيها قوله تعالى Mفَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ L من دون أن يبدي فارقاً بين الصيغتين في الدلالة على ما كانت تقر به العرب ، فدل على أنهما عنده سواء في الدلالة على هذا الإقرار ، وفي هذا ما يسقط فرق محمود

---

(١) تفسير الطبري (٢١/٢٥١) .

سعيد الفريد العجيب .

قال الطبري : " ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها أنها كانت تُقر بوحدانيته، غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها، فقال جل ثناؤه: M وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L [سورة الزخرف : ٨٧] وقال : M قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ ´ µ ¶ ¸ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ L [سورة يونس : ٣١] .

ثالثاً : لم يفرق الطبري بين اعتقاد مشركي العرب في الخلق والرزق ، كما فرق محمود سعيد ، قال الطبري " إذْ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله، وأنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم "

وفي تفسير الآيات من سورة يونس : M قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ ´ µ ¶ ¸ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ L [سورة يونس : ٣١-٣٢] .

قال ابن جرير : " القول في تأويل قوله تعالى :M فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ L يقول تعالى ذكره لخلقه : أيها الناس فهذا الذي يفعل هذه الأفعال، فيرزقكم من السماء والأرض ، ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت والميت من الحـي، ويـدبر الأمـر M ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ L ، لا شك فيه Mفَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ L يقول: فأي شيء سوى الحق إلا الضلال ، وهو الجور عن قصد السبيل؟.

يقول: فإذا كان الحـق هـو ذا، فادعـاؤكم غـيره إلهـا وربـاً، هـو الـضلال والذهاب عن الحق لا شك فيـه Mفَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ L يقـول: فـأي وجـه عـن الهدى والحق تُصرفون ، وسواهما تسلكون ، وأنتم مقرون بأن الذي تـصرفون عنه هو الحق؟"[١]اهـ.

فبين ـ رحمه الله ـ أن صيغة Mفَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ L تدل على الإقرار وذلك قوله : " وأنتم مقرون بأن الذين تصرفون عنه هو الحق " مسقطاً فرق محمـود سـعيد المدعى . وذكر كذلك اعتقاد مـشركي العـرب نـسبة الخلـق والـرزق وسـائر التصرفات لله رب العالمين . فجمع بين ما فرقه محمود سعيد .

---

(١) تفسير ابن جرير (١٥/ ٨٤) .

فتأمل كيف بكت قول الطبري محمود سعيد وعراه وكشفه ، أما الرازي الأشعري فقد نادى على محمود سعيد بأنه غير كامل العقل كما تقدم معنا عند مناقشة غائلة المالكي شيخ محمود سعيد [١].

وعلى حمل الآيات على هذا المعنى من ذكر إقرار المشركين بربوبية ربهم بلا فرق بين معاني الخلق والرزق ، وأنه تعالى مدبر أمرهم على الحقيقة ، مضى أكابر المفسرين بحيث لم يوجد أحد ينسب إلى هذا العلم يقول بخلافه ، وإذا أردنا أن نذكر أقوالهم في ذلك لخرجنا عن شرط الاختصار إلى الإطالة إلى حد الإملال .

وبكل حال فقد قال تعالى : Mقُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ L [سورة البقرة : ١١١] فليذكر لنا محمود سعيد مفسراً يعتد بقوله في البيان عن معاني القرآن يقول بالدعاوى التي أتى بها ، وأما الكلام المرسل الذي لا بينة معه فلا علاقة له لا بالعلم ولا بالديانة ولا بالعقل في قليل أو كثير .

---

(١) انظر ص ٥٣.

والوقفة الثانية : يقول محمود سعيد : " والذين قالوا إن مشركي العرب كانوا يؤمنون إيماناً كاملاً بالله تعالى لم يفرقوا بين العبارة الحالية والمستقبلية " اهـ.

يقصد بالعبارة الحالية : ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وبالعبارة المستقبلية : ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ ويقصد بعدم التفرقة ما ادعاه بأن الأخيرة تفيد الاستقبال المنافي للإقرار الدال على المعرفة والاعتقاد الجازم .

ويتعلق بهذا العبث كلام :

أولاً : إن تفرقة محمود سعيد بين قوله تعالى ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ، وقوله تعالى ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ باعتبار اختلاف الدلالة على الحال أو الاستقبال استخفاف بالقارئ ؛ فإن في دلالة الفعل المضارع المجرد على زمن حدوثه خمسة أقوال ، أقواها قول سيبويه أنه مشترك بين الحال والاستقبال .

لكن دخول لام القسم على المضارع يوجب توكيد الفعل بالنون ، كما قوله تعالى ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ، ونون التوكيد خفيفة كانت أو ثقيلة تخص الفعل بالاستقبال وتمنعه الحال .

قال ابن هشام : " وأما المضارع فإن كان حالاً لم يؤكد بهما[1]، وإن كان مستقبلاً أكد بهما وجوباً نحو قوله تعالى : M وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم L [سورة الأنبياء : ٥٧] وقريباً من الوجوب في نحو قوله تعالى: M m n o p q L [سورة الأنفال : ٥٨] M M N L [سورة الأعراف: ٢٠٠] وجوازاً كثيراً بعد الطلب نحو: M وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا L [سورة إبراهيم : ٤٢]... "[2]اهـ

وعلى هذا فكل من قوله تعالى Mلَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L وقوله تعالى Mفَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ L فيه ما يمحضه للاستقبال ويمنعه الحال سواء نون التوكيد في الأول أو السين في الثاني . فكلا الصيغتين للاستقبال ، ومن ثم فقول محمود سعيد عن قوله تعالى:Mلَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L جملة حالية جهل منه بكل من معنى الحال والاستقبال .

وربما ـ ولست بالواثق ـ أنه أراد أن يقول : " إن العبارة تقتضي الفور " فلم يعرف الفرق، وحتى لو أراد هذا فخطأ ؛ فإن المؤكد باللام والنون لا

---

(١) يعني نون التوكيد خفيفة كانت أو ثقيلة .

(٢) مغني اللبيب (٢ / ٣٩٢) .

يقتضي الفور ومن فروعه قوله تعالى : Mلَتَدۡخُلُنَّ © ٱلۡحَرَامَ L [سورة الفتح : ٢٧] .

ثانياً : لقد اختلف في دلالة الفعل المضارع (أقر) هل يكون إقراراً أو وعداً بالإقرار ؟ تبعاً للاختلاف في دلالة الفعل المضارع على الحال أو الاستقبال واحتماله لكل منهما(١).

لكن ليس معنى Mفَسَيَقُولُونَ L سنقر حتى يحمل على الوعد بالإقرار ومن ثم فإن الإجابة ليست حاضرة في أذهانهم كما يدعي محمود سعيد .

ولكن معناه سيعترفون وسيقرون ، فهو إخبار ، ومعنى Mفَسَيَقُولُونَ L في هذا هو نفس معنى Mلَيَقُولُنَّ L .

ثالثاً : إن المعنى المطابقي لقوله تعالى Mفَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ L هو نفس المعنى المطابقي لقوله تعالى Mلَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L وهو الإخبار عن قول المشركين وجوابهم عما يسئلوا عنه. ولأن المخبر هو الله عز وجل فلا يحتمل هذا الخبر إلا الصدق.

وهذا مع ما فيه من دلائل الإعجاز بالإخبار عن الغيب ، مع توافر دواعي المشركين على التكذيب والإنكار ، فيه أيضاً تحدي للمشركين أن ينكروا تلك

---

(١) انظر التمهيد في تخريج الفروع على الأصول للأسنوي (ص١٤٧) .

المسلمات إن أمكنهم .

يقول ابن عاشور : " وإنما أخبر الله عنهم بـأنهم سـيعترفون بـأن الـرازق والخالق والمدبر هو الله ؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون غير ذلك ، كما تكرر الإخبار بذلك عنهم في آيات كثيرة من القرآن .

وفيه تحدّ لهم فإنهم لو استطاعوا لأنكروا أن يكون ما نسب إليهم صحيحاً، ولكن خوفهم عار الكذب صرفهم عن ذلـك فلـذلك قامـت علـيهم الحجـة بقوله : Mأَفَلَا تَتَّقُونَ L "[١]اهـ.

ومعنى قوله Mأَفَلَا تَتَّقُونَ L يعني فتنزهونه عن الشريك بعد اعترافكم أنه الفاعل الواحد . قال ابن عاشـور : " والفـاء في قولـه : Mأَفَلَا تَتَّقُونَ L فـاء التفريع ، أي يتفرع على اعترافكم بأنـه الفاعـل الواحـد إنكـار عـدم التقـوى عليكم . ومفعـول Mتَتَّقُونَ L محـذوف ، تقـديره تتقونـه ، أي بتنزيهـه عـن الشريك " اهـ.

رابعاً : قول المشركين إقرار منهم واعتراف ، لم يكذبهم الله عز وجل فيـه ، بل فرع عليه الإنكار عليهم وتوبيخهم ، ونسبتهم إلى السفه والضلال العظيم،

(١) التحرير والتنوير (١١/ ٧٣) .

فهو إذن المقدمة المسلمة وساق الحجة التي قامت على الكفار بأنهم لا يعقلون.

خامساً : إنه لا فرق بين التركيبين : افتتاح القسم بقوله تعالى : M { ~ L [1] وجعل جوابه M لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ L . وبين افتتاح معنى الشرط[2] بقوله تعالى : M قُلْ L وجعل جوابه M فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ L سوى التفنن في أساليب التقرير .

ويصف ابن عاشور هذا التنوع في التقرير في السورة الواحدة فيقول في تأويل قوله تعالى : M ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ ´ µ ¶ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ L [العنكبوت : ٦٢] :" هذا إلزام آخر لهم بإبطال شركهم

---

(١) هذا من أساليب القسم ، واللام الداخلة على أداة الشرط (إن) في قوله تعالى (لئن) للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها لا على الشرط .

(٢) يقول ابن عاشور (التحرير والتنوير١١/١٦٥) : " والفاء في قوله : M فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ L فاء السببية التي من شأنها أن تقترن بجواب الشرط إذا كان غير صالح لمباشرة أداة الشرط ، وذلك أنه قصد تسبب قولهم : M ٱللَّهُ L على السؤال المأمور به النبي عليه الصلاة والسلام ، فنزل فعل M قُلْ L منزلة الشرط فكأنه قيل : إن تَقل من يرزقكم من السماء والأرض فسيقولون الله .

وافتضاح تناقضهم ، فإنهم كانوا معترفين بأن الرازق هـو الله تعـالى M قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ ´ µ ¶ ¸ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ L [سورة يونس : ٣١] وإنما جاء أسلوب هذا الاستدلال مخالفاً لأسلوب الـذي قبلـه والذي بعده، فعدل عن تركيب M وَلَئِن سَأَلْتَهُم L تفنناً في الأساليب لتجديد نشاط السامع "[1]اهـ.

غرائب الاستدلال :

فإن تعجب فاعجب من استدلال منظري القبوريين على اعتقاد المـشركين صفة الخلق في الأصنام دون رب العالمين ـ مع أنه من محالات العقـول ـ بـأنهم يقدمون توقيرها على توقيره ، فأي شيء يـصنع هـؤلاء المنظـرون في أتبـاعهم الذين يتزلفون إلى الله عز وجل بوسائط يقدمون توقيرها على توقيره، وحقهـا على حقه !؟. ولينظر هـؤلاء إلى شـهادة الآلـوسي (المتـوفي : ١٢٧٠ هــ) في معرض تفسيره لقوله تعالى : M ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا à مِّنكُم â يُشْرِكُونَ L [النحل: ٥٤] : " وفي الآية ما يدل على أن صنيع أكثر العوام اليوم :

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٩٨) .

من اللجوء إلى غيره تعالى ممن لا يملك لهم ، بل ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً ـ عند إصابة الضر لهم ، وإعراضهم عن دعائه تعالى عند ذلك بالكلية ـ سفه عظيم ، وضلال جديد ، لكنه أشد من الضلال القديم .

ومما تقشعر منه الجلود ، وتصعر له خدود الكفرة أصحاب الأخدود ، فضلاً عن المؤمنين باليوم الموعود : أن بعض المتمشيخين قال لي وأنا صغير : " إياك ثم إياك أن تستغيث بالله تعالى ـ إذا خطب دهاك ، فإن الله تعالى لا يعجل في إغاثتك ، ولا يهمه سوء حالتك ، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين ، فإنهم يعجلون في تفريج كربك ، ويهمهم سوء ما حل بك ". فمج ذلك سمعي، وهمي دمعي ، وسألت الله تعالى أن يعصمني والمسلمين، من أمثال هذا الضلال المبين . ولكثير من المتمشيخين اليوم كلمات مثل ذلك " اهـ [1].

وعلى هذا يكون المعنى القائم بأفعال هؤلاء جميعاً : عبدة الأصنام ، وعبدة القبور ، أنه تعالى لم يعد يملك رداً لشفاعة هذه الوسائط ، فهم يقدمونها عليه تعالى ، سواءً صرحوا بهذا المعنى أو احتالوا على التصريح به وهذا يأخذنا

---

(١) روح المعاني : (١٤ / ١٦٦) وانظر من أقوال أئمة القبوريين ص ١٤٦ .

إلى إشارة لحقيقة الشفاعة الشركية .

الشفاعة الشركية

الشفع لغة ضد الوتر ، فالشفع الزوج تقول كان وتراً فشفعته ، فيرجع في الاصطلاح لمعنى الضم قال الراغب : " الشفاعة الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه ، وأكثر ما تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى "[1]اهـ.

وقال ابن منظور : " والشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، وشفع إليه في معنى طلب إليه ، والشافع الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب "[2]أهـ.

والشفاعة منها مثبتة ومنها منفية ، وعلى وجه الإجمال لا التفصيل ، فالمثبتة لها شرطان :

الأول : الإذن للشفيع قال تعالى : Mمَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ L .

---

(١) المفردات ص ٢٦٦.

(٢) لسان العرب مادة شفع (٨/١٧٣) .

الثاني : الرضى عن المشفوع فيه ، قال تعالى :M وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ à إِلَّا â بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ ç è é ê L [سورة النجم : ٢٦] .

وأعظم الشفاعة المثبتة شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهـل الموقـف ، وهي معنى قولـه تعـالى :M S T U V W X Y L [سـورة الأسراء : ٧٩] .

أما الشفاعة المنفية فهي الشفاعة الشركية ، قال الله تعالى : M r s t u v w x y z { | } ~ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي © وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ L [سورة يونس : ١٨] .

قال الطبري : " يقول تعالى ذكره : ويعبُد هؤلاء المشركون الذين وصفت لك يا محمد صفتهم ، من دون الله الذي لا يضرهم شيئاً ولا ينفعهم في الـدنيا ولا في الآخـرة ، وذلـك هـو الآلهـة والأصـنام التـي كـانوا يعبـدونها M { | } ~ ٱللَّهِۚ L يعني: أنهم كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله ، قال الله لنبيـه محمـد صـلى الله عليـه وآلـه : Mقُلۡ L لهـم

Mأَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي © وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ L يقول: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟. وذلك أن الآلهة لا تشفع لهـم عنـد الله في السماوات ولا في الأرض . وكان المشركون يزعمون أنها تشفع لهم عنـد الله فقال الله لنبيه صلى الله عليه وآله : قل لهم : أتخبرون الله أن مـا لا يـشفع في السماوات ولا في الأرض يشفع لكم فيهما !؟.

وذلك باطل لا تُعلم حقيقته وصحته ، بـل يعلـم الله أن ذلـك خـلاف مـا تقولون ، وأنها لا تشفع لأحد ، ولا تنفع ولا تضر .

Mسُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ L يقول : تنزيهاً لله وعلـواً عـما يفعلـه هؤلاء المشركون ، من إشراكهم في عبادته ما لا يضر ولا ينفع ، وافترائهم عليه الكذب " [1]اهـ.

فأول ما في هذه الشفاعة أن المشركين قد افتروا على الله الكذب إذ قالوا لمـا أخبر الله عز وجل أنه لا يكون إنه كائن ، ثم إنهم قد عينوا الـشفعاء مـن قبـل أنفسهم استقلالاً عن إرادته سبحانه ، ويلزم في هذا مـن الإيجـاب عـلى الله أن يكون لهؤلاء الشفعاء المزعومين تأثيرٌ في ملكه بوجه من الوجوه ، وهذا يمنـع

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٤٦) .

تمام ملكه ، وينافي كمال سلطانه على خلقه ، وهـذا الاعتقـاد كـما تـرى كفـر مستقل عن نفس عبادة الأنداد بدعائها .

وحتى يتضح هذا المقـام نمهـد لـه بقاعـدة لطيفـة في العلاقـة بـين النفـي والإثبات في تحقيق صفة رب الأرض والسماوات ثم نعود إلى مبحثنا ثانية .

علاقة النفي والإثبات في وصف رب الأرض والسماوات :

من المعلوم المقرر أن النفي المجرد للسوء لا يثبـت بـه مدحـة ، فمـن نفـى الجهل لم يثبت العلم ، أما مَنْ أثبـت العلـم فقـد نفـى الجهـل ، وهـذا معنـى ضروري كما يصفه الرازي فيقول : " ثم نقول : إن النفي يمتنع أن يكون سبباً لحصول المدح والثناء ، وذلك لأن النفي المحـض والعـدم الـصرف لا يكـون موجباً للمدح والثناء والعلم به ضروري ، بل إذا كان النفي دليلاً على حصول صفة ثابتة من صفات المدح والثناء . قيل : بأن ذلك النفي يوجب المدح "اهـ

ومعنى عبارته الأخـيرة أن النفـي لا يوجـب المـدح والثنـاء إلا إذا اتـصل بالإثبات ؛ وعلى هذا فالعمدة على الإثبات، فإذا اقترن معه النفي كان أبلـغ في الثناء وتأكيده ، وهذه قاعدة مقررة .

ثم قال الـرازي :" ومثالـه أن قولـه : M } | { ~ نَوۡمٌ L [سـورة البقرة : ٢٥٥] لا يفيد المدح نظراً إلى هذا النفي ؛ فإن الجـماد لا تأخـذه سـنة ولا نوم ، إلا أن هذا النفي في حق الباري تعالى يدل على كونه تعالى عالماً بجميـع المعلومات أبداً من غير تبدل ولا زوال " [١]اهـ.

فورود النفي M } | { ~ نَوۡمٌ L بعد الإثبات M x y L فيه تمـام الكـمال ـ الحيـاة والقيوميـة ـ ، وهـذا أبلـغ مـا يكـون في تحقيـق المدحـة بالوصف؛ وهذا معنى ما شاع في أقوال المفسرين من وصف النفـي الآتي بعـد الصفة بأنه بيان وتأكيد لها .

قال الرازي : " ثم إنه تعالى لما بين أنه حـي قيـوم أكـد ذلـك بقولـه: M } | { ~ نَوۡمٌ L والمعنى : أنه لا يغفل عن تدبير الخلق .... فهو سبحانه قيم جميع المحدثات ، وقيوم الممكنات ، فـلا يمكـن أن يغفـل عـن تـدبيرهم، فقوله M } | { ~ نَوۡمٌ L كالتأكيد لبيان كونه تعالى قائماً "[٢] اهـ.

---

(١) التفسير الكبير(١٣/ ١٠٥) .

(٢) التفسير الكبير(٧/ ٦) .

وقال ابن كثير : " قوله: M { | } ~ نَوْمٌ L أي : لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت ، شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية ، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم ، فقوله: M { | } ~ نَوْمٌ L أي : لا تغلبه سنة وهي الوسن والنعاس. ولهذا قال : M ~ نَوْمٌ L لأنه أقوى من السنة "[1]اهـ

وقال البقاعي : " ثم بين قيوميته وكمال حياته بقوله : M { | } ~ نَوْمٌ L "[2]اهـ

وقال أبو حيان :" قال الزمخشري: وهو تأكيد للقيوم، لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوماً "[3] اهـ.

فقوله : " تأكيد للقيوم " يقصد به تمام القيومية وحقيقتها وأن الكلام لم يجر على وجه المبالغة .

وقال ابن عاشور : " وجملة M { | } ~ نَوْمٌ L مُقرّرة لمضمون

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٧٨) .

(٢) نظم الدرر للبقاعي (١/ ٤١٠) .

(٣) البحر المحيط (٣/ ٩) .

جملة M s t u v w x y L ولرفع احتمال المبالغة فيها ، فالجملة منزّلة منزلة البيان لمعنى الحي القيوم ولذلك فصلت عن التي قبلها "[1]اهـ.

وقال الآلوسي : "M{ | } ~ نَوْمٌ L بيان لقيوميته "[2]اهـ.

ومن لطائف هذا الباب وذاك المعنى ما ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى M & ' (L [سورة الأخلاص : ٢] . قال : " وقال الربيع بن أنس : هو ـ أي الصمد ـ الذي M (* + , - L [سورة الأخلاص : ٣]. قال ابن كثير : فكأنه جعل ما بعده تفسيراً له ، وهو قوله : M (* + , - L وهو تفسير جيد " [3].اهـ.

قلت : وجه كونه تفسيراً جيداً هو إرادة تمام كمال الأحدية والصمدية المثبتين على وجه الحقيقة في قوله تعالى : M ! " # $ % & ' (L وذلك بنفي النقص بعدهما M (* + , - L والله تعالى أعلم . فإذا تقرر هذا الأصل عدنا إلى الشفاعة الشركية .

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٩٣) .

(٢) روح المعاني (٢/ ٣٢١) .

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٥٢٨) .

عودة إلى الشفاعة الشركية :

تقدم أن إثبات شفاعة لم يأذن بها الله يلزم منه القدح في تمام ملكه تبارك وتعالى . وفي هذا يقول الرازي : " لأنه لما كان كل ما سواه إنما تقومت ماهيته ، وإنما يحصل وجوده بتقويمه وتكوينه وتخليقه ؛ لزم أن يكون كل ما سواه ملكاً له وهو المراد من قوله : M لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ L [سورة البقرة : ٢٥٥].

ثم لما ثبت أنه هو الملك والمالك لكل ما سواه ، ثبت أن حكمه في الكل جارٍ ليس لغيره في شيء من الأشياء حكم إلا بإذنه وأمره ، وهو المراد بقوله: M مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ L . [سورة البقرة : ٢٥٥].

ثم لما بيّن أنه يلزم من كونه مالكاً للكل ، أن لا يكون لغيره في ملكه تصرف بوجه من الوجوه إلا بإذنه ... "[١] اهـ.

فبينٌ هنا أن قوله تعالى M مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ L وهذا استفهام الغرض منه النفي معناه : لا أحد ، بيانٌ لتمام ملكه الثابت بقوله تعالى: M لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ L وأن هذا بعد ذاك جارٍ على القاعدة التي

---

(١) التفسير الكبير (٦/٧) .

تقدمت الإشارة إليها في اجتماع النفي والإثبات .

ومن ثم فإن اعتقاد شفاعة لم يأذن فيها الباري سبحانه يلزم منه القدح في تمام هذا الملك ، إذ تؤول هذه الشفاعة المنفية إلى نوع من التصرف في ملكه تعالى بوجه من وجوه التصرف كما قرره الرازي .

ومما يدل على وجه العلاقة بين الشفاعة المنفية وإثبات ملك لهؤلاء الشفعاء مع الله ، أنه لما أثبت المشركون هذه الشفاعة عارضهم الله سبحانه بأن هؤلاء لا يملكون شيئاً . قال تعالى : \ [Y X W V U T M
[^ _ ` a b c L [سورة الزمر : ٤٣].

وقال الرازي : " اعلم أن الكفار أوردوا سؤلاً فقالوا : نحن لانعبد هذه الأصنام لاعتقاد أنها تضر وتنفع ، وإنما نعبدها لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين فنحن نعبدها لأجل أن يصير هولاء الأكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى : \ [Y X W V U T M
[^ _ ` a b c L "[1] اهـ.

فهذا كما ترى كفر اعتقادي مستقل أصله الانتقاص من تمام ملك الله عز

---

(١) التفسير الكبير(٢٦/٢٤٨) .

وجل ، وهذا شرك في الربوبية .

وفي معرض الجواب عن استدلال المعتزلة بإبطال الشفاعة في الموحدين بقوله تعالى : M : ; < = > ? @ L [سورة غافر : ١٨].

قال الرازي : " أجاب أصحابنا عن السؤال الأول فقالوا : إن القوم كانوا يقولون في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله ، وكانوا يقولون إنها تشفع لنا عند الله من غير حاجة فيه إلى إذن الله ، ولهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله : Mمَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ L ، فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله إجابة الأصنام في تلك الشفاعة ، وهذا نوع طاعة ، فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله : M : ; < = > ? @ L "[1]اهـ.

فالمقصود بالطاعة في الآية اعتقاد إيجاب على الله لشفاعة لم يأذن فيها ؛ وهذا اعتقاد نوع تأثير في ملك الله عز وجل ؛ لأن التأثير إما أن يكون بالذات وإما أن يكون بالشفاعة غير المأذون فيها ، وهذا كفر اعتقادي مستقل منشأه الانتقاص من تمام ملك الله عز وجل وكمال سلطانه على خلقه .

---

(١) التفسير الكبير (٢٧/ ٤٩) .

وقال تعالى : M قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ ! " # $ % & ' (| L [سورة سبأ : ٢٢-٢٣].

فذكرت الآية أنواع الشرك في الربوبية المفضية إلى الشرك في الإلهية ونفتها ، ومنها إثبات شفاعة لم يأذن بها الله عز وجل ، وذلك قوله تعالى: M ! " # $ % & ' (| L ، فدل ذلك من طريق النص أن اعتقاد هذه الشفاعة شرك في الربوبية مفضي إلى الشرك في العبادة .

قال الرازي : " واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة :

أحدها ....

ورابعها : قول من قال إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا، فقال تعالى في إبطال قولهم M ! " # $ % & ' (| L فلا فائدة لعبادتكم غير الله ؛ فإن الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة "[1]اهـ.

---

(١) التفسير الكبير (٢٥/٢٢١) .

وهذا من الرازي مع ما تقدم من تفسيره لقوله تعالى : Mمَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ L ، ولقولـــــه تعـــــالى : M : ; < = > ? @ L يدل على أن مشركي العرب قد تحققوا بشرك في الربوبية ، وهو تعيين شفعاء من قبل أنفسهم لم يأذن الله لهم بها ، واعتقاد إيجاب طاعتهم على الله عز وجل . وأن هذا الشرك في الربوبية قد أفضى بهم إلى شرك في عبادته تعالى .

حيلة دوشتي[١]:

يندفع دوشتي في تأصيل تمرير الشرك إلى العامـة إلى مثـل مخـاطرة المـالكي فيقول مـستنكراً : " أين موجب الشرك في الشفعاء الذين اتخذوا من دون الله ؟ فيبقى سؤال مهم هو : ما علاقة مفردة الشفاعة بالتوحيد ؟. وكيف يعد اتخاذ الشفيع من دون الله شركاً ؟...اهـ.

يريد بذلك أنه لا شرك في طلب الشفاعة من الأموات ، كما أنـه لم يكـن في طلب الشفاعة من الأصنام شركٌ، ومن ثم فإن الفرق بين التوحيـد (الـشفاعة المثبتة) والشرك (الشفاعة المنفية) لا يمكن أن يكون هو الموت .

---

(١) عبد الله دوشتي مخبط مخلط ذو نفس رافضي لا يخفى ، كتب كتاباً سماه " الخلل الوهـابي في فهم القرآن " وأهداه إلى التنظيم العسكري الرافضي في العراق الذي يقتل أهل السنة .

ثم قرر أصله العام لمعنى التوحيد فقال : " إن التوحيد هـو الاعتقـاد بـأن الخالق المدبر الضار النافع هو الله وحده لا شريك له ، ولازم ذلك أن لا تكون العبادة إلا له ، أي لا يقصد الإنسان غيره في النسك والعبادات " [1]اهـ.

وبطلان هذه الحيلة التي جمعت بين مكر السيء والسذاجة المفرطة أن يقال: الفرق بين التوحيد والشرك هنا والذي قرره أئمة البيان عن معاني القرآن ، هو الانتقاص من تمام ملك الله عز وجل ، وكمال سلطانه على خلقه بتعيين شفعاء لم يأذن الله عز وجل لهم في الشفاعة ؛ إذ أن حقيقـة هـذا الاعتقـاد هـو إيجـاب طاعة على الله عز وجل لهؤلاء الشفعاء، وهذا شرك مستقل .

أننا نستطيع أن نلمس هذا الاعتقاد بوضوح ونحن نقرأ قول مـصطفى أبي سيف الحمامي : " وهل يستوى من يتقدم الى ربه بنفسه وهو ملطخ بقاذورات المعاصي ، متدنس بدنس الذنوب بمن يتقدم اليه بين أحبابه وصفوته من عباده يحتمى بهم !؟ " [2]هـ.

فانظر كيف دخـل هـذا عـلى ربـه في حـرسه وحراسته يحتمي بهم . وبهـذا

---

(١) الخلل الوهابي في فهم القرآن ص ٦١.

(٢) غوث العباد ص ٣٨ .

تتحول الشفاعة من ضم سؤال إلى سؤال إلى نوع من الإدلال على الله ، وإيجاب طاعة عليه سبحانه ، والاستنصار بالشفعاء منه ، الذي هو أظهر معاني اتخاذ الأولياء من دون الله .

ومن شركيات الاعتقاد الجلية في هذا الباب ، ما حكاه الشعراني عن أحمد البدوي قال : " أخبرنا الشيخ محمد الشناوي ـ رضي الله عنه ـ أن شخصاً أنكر حضوره مولده ؛ أي مولد البدوي فسُلب الإيمان فلم يكن فيه شعرة تحن إلى الإسلام، فاستغاث بسيدي أحمد ـ رضي الله عنه ـ فقال : بشرط ألا تعود .

قال : نعم ، فرد عليه ثوب إيمانه "[١]اهـ

فتأمل كيف سلب إيمانه ، ثم تأمل كيف استغاثه في عودة الإيمان له من جديد فرده عليه ؛ تعرف مبلغ اعتقاد هؤلاء القبوريين في سلطان متبوعيهم باسم الشفاعة ؛ فإن رجلاً يمنح الإيمان ويمنعه ، قد عظم سلطانه جداً مع الله سبحانه وتعالى .

ولا شك أن منح الإيمان وسلبه لا يقل عن الإقطاع والتصرف في العالم ، وينقل الشعراني عن البدوي جمعه بين الأمرين وذلك قوله ـ أي البدوي ـ :

---

(١) طبقات الشعراني (١ / ١٦٢) .

" وعزة ربي ماعصى أحد في مولـدي إلا وتـاب وحـسنت توبتـه ، وإذا كنـت أرعى الوحوش والسمك في البحار وأحميهم من بعضهم بعضاً ، **أفيعجـــزني الله عن حماية من يحضر مولدي !؟"** [1]اهـ.

ويحكي شمس الدين الأفغاني من عجائب مـا وقـف عليـه أن امـرأة كـف بصرها ومات ولدها فنادت وليهـا وقالـت : **أمـــا الله فقد صنع ما ترى ، ولم يبق إلا حسبك فيَّ !!!"**[2]اهـ.

ولا بأس أن نختم هذا الفصل في بيان معنى التوحيد عند القبوريين بإطلالة على سقطة الغماري .

سقطة غمارية[3] :

قـال الغماري في رده عـلى الشيخ مخيمر ـ رحمه الله ـ : " الوجـه الثـاني : أن

---

(1) المصدر السابق .

(2) معارج الألباب ص ٢٠٨.

(3) نسبة إلى عبد الله بن الصديق الغماري ، الذي كتب كتاباً سماه " الـرد المحكـم المتـين " حشاه بالسب والشتم للشيخ مخيمر ـ رحمه الله ـ ، وحـشاه بالتعـالم الأجـوف إذ أكثـر مـن استعمال القواعد الأصولية في غير مواضعها ، بل ولم يعرف كيف يحكمها ، وإنما مراده مـن ذلك إدخال الوهم والإيهام على القارئ

الإشراك الذي حصل من المشركين ، الذين ذمهم القرآن هو عبادتهم للأنبياء والملائكة والأولياء بناء على اعتقادهم فيهم أنهم شاركوا الله في الألوهية وأن لهم تأثيراً في الأشياء "[1]اهـ.

هذا إذن شرط الغماري في تحقيق معنى الشرك ، ولا شك أن قوله " بناء " صريح في التعليل والربط بين تحقيق معنى العباده (عبدوهم) وبين (اعتقادهم مشاركة الله في الألوهية) .

وإذا كان كلامه في معرض التقييد لما أطلقه خصمه بأن دعاء غير الله عبادة لهذا الغير، فالمكافي لكلامه من طريق التلازم أنهم إذا عبدوا غير الله من غير اعتقاد الإلهية فيه فليسوا بمشركين .

ولا يقول هذا رجل شم معرفة النبوات ، قال الرازي : " وأجمع كل الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى كفر ، سواء اعتقد في ذلك الغير ، كونه إلهاً للعالم ، أو اعتقد فيه أن عبادته تقربه إلى الله "[2]اهـ.

فإذا أقلناه من خبطه وخبصه هذا وقلنا له : قصدت ما قصده الخوميني

---

(١) الرد المحكم ص ٢٤.

(٢) مفاتح الغيب (١٤ / ١٨٢) .

وفرخه السقاف أنهم لن يكونوا عابدين لها إلا إذا اعتقدوا فيها الإلهية !؟.

حتى لو قصدت هذا لم تفعل شيئاً إذ لا بد من سؤال : وكيف اعتقد مشركو العرب في الصنم المنحوت الإلهية !؟

فلو قال : بعبادتها كان كالمستهزئ بنفسه فضلاً عن الناس .

فلم يبق له ـ ولو طار في الهواء ـ إلا أن يصرح بأنهم اعتقدوا فيها الخلق والتأثير . وقد صرح بالتأثير وموه بالخلق كأنه استحى مما لم يستح منه غيره .

أما تلميذه محمود سعيد فقد تخلى عن حذر شيخه وتمويهه ، واندفع اندفاعاً مذهلاً يربو على صراحة الخميني السالفة الذكر في تأصيل دعاء الحجر والشجر، فقرر محمود أن من بذل الدعاء، أو القيام، أو الركوع، أو السجود لغير الله ـ بل ربما كل ذلك مجتمعاً ـ فليس بعابد لهذا الغير طالما لم يعتقد فيه الخلق والتأثير ، بل وظاهر كلامه أن هذا من الفعل الجائز المستحب[1] .

إننا مع هؤلاء أمام بلاء قبوري موروث ، هو في حقيقته خصام مع العقل قبل أن يكون خصاماً مع الإيمان ، إذ ما من عاقل مسلماً كان أو غير مسلم يقبل حقيقة هذا الشرط المعاند لضرورات العقل حداً بين الكفر والإيمان،

---

(1) انظر كتابه كشف المستور ص٣٦ .

ولكنه سحر التقليد فنعوذ بالله من الضلال وأهله .

لقد تقدم معنا قياس فليسوف الأشاعرة الرازي وقوله : " و نظيره في الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقادهم أنهم إذا عكفوا على قبورهم فانهم يكونون لهم شفعاء عند الله "[1]اهـ.

والسؤال الآن لمدعي الأشعرية من أصحاب الغماري الذي يقيد الشرك في أفعال مشركي العرب بقوله (بناء على اعتقادهم مشاركة الأصنام لله في الألوهية) : كيف كان هؤلاء العاكفون على القبور على نظير ما كان به مشركو العرب مشركين !؟

وما جواب الغماري وجوابهم عن هذا الشبه مع أن هؤلاء العاكفين ممن صلى لله وصام !؟

وكيف اعتقدوا مشاركة هؤلاء الأموات لله في الألوهية لتصير أفعالهم عبادة !؟

هل اعتقدوا فيهم أنهم غير مخلوقين فهم خالقون ؟

أم اعتقدوا أنهم ممن لا يأكل الطعام ولا يحدث ولا يموت ؟

---

(١) انظر ص١٩ .

أم اعتقدوا في ذواتهم التأثير ؟

إن الرازي فسر هذه المشابهة في اعتقاد الإلهية بالـشبه في الفعـل والقـصد ، فقال: " اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر رجاء شفاعة أصحابها ".

وهذا التعظيم له صور معلومة ، والشفاعة قصد منضبط .

إذن فهذا المجموع من الفعل والغرض هو عند أهل العلم تحقيق معنـى : M a L ومن غير حاجة إلى قيد الغماري ـ اعتقدوا أنهـم شـاركوا الله في الألوهية ـ لأن هذا المجموع من الفعل والقصد هو بذاته مشاركة في الألوهية وقد تقدم قول الشهرستاني الأشعري : " لكن القوم لما عكفـوا عـلى التوجـه إليها كان عكوفهم ذلك عبادة وطلبهم الحوائج منها إثبات إلهية لها " .

ولكي يضمن الغماري عدم كشف حيلته حاد في رده على الـشيخ مخيمـر ـ رحمه الله ـ عن تعريف معنى العبادة ، بل وشيد رده كله على هذه الحيدة ، فلـو كان ممن ينصف من نفسه لسمى كتيبه (هذه حيدتي) .

قال الغماري في محكمه في الشيخ مخيمر ـ رحمه الله ـ : " ثم قال المتنطع : إلا أن كل هذه الفرق كانوا يعتقـدون أن الخـالق لكـل شيء هـو الله تعـالى ، وأن دعائهم لمن يدعون ليقربوهم إلى الله زلفى ، كما حكى الله تعـالى ذلـك عـنهم جميعاً بقوله : M ` a b c d e f L.

قال الغماري معقباً : " وأقول لا ندري هل بلغت الغباوة بالمتنطع إلى هـذا الحد ، أو التعصب الممقوت ، والقحة البالغة أوديا به في هذه الحفرة المهلكـة ، ولعمر الله إنه لمصاب بكل ذلك وأكثر منه ، وإلا فالآية كما ترى مصرحة بـأن المشركين عبدوا آلهتهم ليقربوهم إلى الله زلفـى ، ومعنـى العبـادة معـروف في الشرع واللغة لا يحتاج إلى شرح وبيان "[1]اهـ.

إذن فليس ههنا غير السب والشتم فإذا جاء الزحف فر صـاحبنا ، وقـال : " ومعنى العبادة معروف في الشرع واللغة لا يحتاج إلى بيان " مع أن الخـصومة كلها في تحقيق هذا المعنى الذي كانوا به معتقدين لألوهية هذه الأصنام ، ورد الغماري بدون هذا البيان إلا هذا الدور الفاسد الذي ركبه ، حيدة تجعل بـاقي كتيبه تهويلاً وتشويشاً وتهويشاً بذكر ما لا طائل تحته ، وغالبه يدينه .

وهكذا ضمن الغماري لمتبعيه أنهـم لـو توجهـوا لأصـحاب القبـور بكـل الأفعال التي كان بها مشركو العرب عابـدين لأصـنامهم، وأولهـا الـدعاء لمـا خدش ذلك في إسلامهم ؛ لأنهم لا يعتقدون في هـؤلاء المقبـورين الألوهيـة ، ومن ثم فهم غير عابدين لها أصلاً .

---

(١) الرد المحكم ص ٣٢.

لكن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : الدعاء هـو العبـادة هكـذا مطلقـاً بغير قيد . فمن نصدق ؟

فعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم : « إِنَّ اَلدُّعَاءَ هُوَ اَلْعِبَادَةُ » .

وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم M - . / 0 1
3 4 5 6 7 8 9 : ; L [1].

وفي لفظ : « إنَّ عِبَادَتِي دُعَائِي» ثم تلا هذه الآية .

وقوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اَلدُّعَاءَ هُوَ اَلْعِبَادَةُ » . من باب قوله

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (ح/١٤٧٩) ، والنسائي في الكبرى (تحفة٩/١١٦٤٣) ، والترمذي (ح/٢٩٦٩، ٣٢٤٧، ٣٣٧٢) ، وابن ماجة (ح/٣٨٢٨)،وأحمد (٤/٢٧٦،٢٧١،٢٦٧، ٢٧٧) ، والبخاري في الأدب المفرد (ح/٧١٤) ، وابن حبان في صحيحه (ح/٨٩٠) ، والحاكم (١/٤٩١) من طريق (الأعمش ، ومنصور) كلاهما عن ذرٍّ ، عن يسيع الحضرمي ، عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ به. وقال الترمذي : حسن صحيح، وقد رواه منصور والأعمش عن ذر ولا نعرفه إلا من حديث ذر " اهـ. وذرٌّ هو ابن عبد الله المُرهبي ثقة من رجال الشيخين، ويسيع هو ابن معدان الحضرمي ثقة والحديث صححه الحاكم، وقال الذهبي : صحيح. وقد روي من حديث البراء مرفوعاً.

صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة » ، يعني ركنه الأكبر ، وروي عن أبي هريرة مرفوعاً أشرف العبادة الدعاء .

وقال ابن جرير في تأويل الآية : " يقول ربكم لكم أيها الناس M / L يقول اعبدوني ، وأخلصوا لي العبادة دون من تعبدون من دوني : الأوثان والأصنام وغير ذلك M O L يقول أجب دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم "[1] اهـ.

ففسر ابن جرير ـ رحمه الله ـ قوله تعالى : M / L بـ (اعبدوني) واستظهر صحة تفسيره بحديث النعمان بن بشير ، وبما نقله عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال M / O 1 L وحدوني أغفر لك .

وفي هذا أعظم الدلالة على أن الدعاء من خصائص التأله والتوحيد (وحدوني) ، ومن ثم فدعاء غير الله من أول ما يدخل في عبادة هذا الغير صنماً كان أو غير صنم ، وهو عين إثبات الإلهية له كما تقدم من قول الشهرستاني .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :" ولا يجوز أن يقول للملك ولا نبي ولا شيخ سواء كان حياً أو ميتاً اغفر لي ذنبي ، ولا انصرني على عدوي ،

---

(١) تفسير الطبري (٢١/٤٠٦) .

ولا اشف مريضي ، ولا عافني أو عاف أهلي أو دابتي ، وما أشبه ذلك ، ومن سأل ذلك مخلوقاً كائناً من كان فهو مشرك بربه من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل "[1]اهـ.

وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : " أصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده ، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئاً في جميع الأمور ، فمن عبد غير الله أو توكل عليه فهو مشرك به "[2]اهـ.

يعني وإن أقر لله تعالى بالخلق والرزق والعلم والقدرة والحكمة ، لأنه كما قال ـ رحمه الله ـ : " فإنه لم يعدل أحد بالله شيئاً في جميع الأمور " .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٦٨) .

(٢) الاستقامة (١/ ٣٤٤) .

القياس الفاسد وشبه القبوريين :

تقدم عرض حقيقة التوحيد عند القبوريين ، والمعاني التي فارقوا بها أهل السنة ، ومن أعظم ما شبهوا به على العامة ، قياسهم على بعض ما ورد به السمع من صفة حياة الأنبياء والشهداء في البرزخ ، وقد تقدم في كلامهم شيء من ذلك ، ثم توسعوا في القياس جداً فلم يكتفوا بالسماع حتى أضافوا إليه حق التصرف في العالم ، وإذا كانوا قد أقدروا الولي في حياته على ما لا يقدر عليه إلا الله ، فقد زادوا في حقوقه بعد موته زيادات كثيرة .

وقد نقل شمس الدين من أقوالهم في ذلك الشيء الكثير ، فمن ذلك [والحواشي أيضاً له] : " الولي في الدنيا كالسيف في غمده، فإذا مات تجرد منه، فيكون أقوى في التصرف " [1] .

وقال الشعراني الوثني (٩٧٣هـ) ، وتبعه كثير من خلطائه الوثنية : " قال سيدي محمد رضي الله عنه في مرض موته : من كانت له حاجة فليأت إلى

---

(١) البريقة شرح الطريقة (١/ ٢٠٣) لأبي محمد بن مصطفى الخادمي (١١٧٦هـ) ، وإرغام المريد للكوثري (١٣٧١هـ) ٢٨ ، وردود على الشبهات لمحمد الحامد الخرافي الحنفي (٢/ ٢١٢) ، والبصائر للدجوي الحنفي الديوبندي الوثني ١١٤ .

قبري ويطلب حاجته أقضها له ؛ فإن[1]ما بيني وبينكم غير ذراع مـن تـراب ، وكـل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل "[2].

ومن أعظم ما عصي به الله عز وجل القياس الفاسد ، وعلامته ضرب المثل في مواضع التسليم بـ " لم " و" كيف " ، وشيخ هذا القياس الذي ابتدعه هو إبليس الذي وقف يضرب المثل لأمر الله عز وجل بـ " لم " و" كيف " قال تعالى : M ! " # $ % & ') * + , - . / 0 1
2 3 L [سورة الأعراف : ١٢]. M * + , - . / 0
1 2 3 4 5 L [سورة الحجر : ٢٣] .

وأصل القياس وركنه الأعظم العلة ، والشيء الذي لا يدرك العقل فيه معنى ظاهراً منضبطاً يمكن تعديته إلى غيره ، كيف يدخله القياس !؟

---

(1) هكذا في النسختين ، وهو غلط ، والصواب : ((فإنه ما بيني وبينكم ...)) ، لأن كلمة ((ما)) حرف نفي ، فلا يصح كونها اسماً لحرف ((إن)) .

(2) لواقح الأنوار في طبقـات الأخيـار (٢/ ٩٦) ط دار الجيـل ، (٢/ ٨٨) ط دار الفكـر ، وأنوار الإنتباه للبريلوي ١٨١ ، والتوسل والزيارة للفقي ١٩٠ ، وجامع الكرامات للنبهاني (١ / ٢٧٠) ، ونفحات القرب والإتصال بإثبات التصرف للأولياء بعد الإنتقـال للحمـوي الحنفي الوثني ٢٢٣ ط بولاق ، ١٤ ط . التركية .

وما أبلغ قول الإمام أحمد في رسالته إلى عبدوس في سبيل المؤمن في ما لا يعقل معناه وتظهر علته :"والإيمان بالقدر خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه ، والإيمان بها ، لا يقال ((لم)) ولا ((كيف)) إنما هو التصديق والإيمان بها، ومن لم يعرف تفسير الحديث، ويبلغه عقله، فقد كفى ذلك وأحكم له ، فعليه الإيمان به ، والتسليم له ... " اهـ.

وحياة البرزخ في القبر باب من أبواب الغيب ، فلا يدخله القياس أصلاً ، ولا يُقاس فيه حال على ما ثبت في غيره ، ولا يُقاس على ما ثبت لنبي لولي ، لكن أصحاب التصوف الفلسفي الباطني جعلوا هذا من قياس الأولى ، إذ قدموا الولي على النبي والرسول[1] .

روى هشام بن يوسف ، حدثني عبد الله بن بحير القاص ، أنه سمع هانئاَ مولى عثمان قال : كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا ؟

فقال: « إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ ، فَإِنْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ

---

(1) انظر ص٧ .

أَشَدُّ مِنْهُ . قَالَ : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ »[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم : « الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ » مدخلٌ حياة البرزخ في الغيب ، ومخرجٌ لها عن معاني القياس أصلاً ، إذ ليس لهذه الحياة مثال سابق يُدرك فيه العقل موضعاً للقياس في العلل أو الشروط أو الموانع .

مثل ما أخرج مسلم من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ »[2].

---

(1) إسناده حسن : أخرجه عبد الله بن أحمد (١ /٦٢) ، والترمذي (ح/٢٣٠٨) ، وابن ماجة (ح/٤٢٦٧) ، والبيهقي (٤ /٥٦) . وهشام بن يوسف ثقة ، وعبد الله بن بحير وثقه ابن معين ، واضطرب فيه كلام ابن حبان ، وقال : هما اثنان : عبد الله بن بحير بن ريان ، ثقة ، والثاني : أبو وائل القاص ، وقال فيه : يروي العجائب ، وقال الذهبي : " لم يفرق بينهما قبله أحد "، وقال هشام بن يوسف :" عبد الله بن بحير الذي يروي عن هانئ مولى عثمان متقن لما يروي" . وهشام بن يوسف أعرف بشيخه ، وهانئ مولى عثمان، قال النسائي: لا بأس به . وقال الترمذي : " حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث هشام بن يوسف " ، وقال الحاكم صحيح ووافقه الذهبي .

(2) مسلم (ح/٢٢٧٥) .

ومثل قوله تعالى : n m l k j i h g f e d M

o p q r L [آل عمران: ١٦٩] .

وأخرج مسلم من حديث مسروق قال : سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية : p o n m l k j i h g f e d M

q r L .

قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك ، فقال ـ أي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَرْوَاحُهُمْ فِى جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّة حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ .

فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟

قَالُوا : أَىَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّة حَيْثُ شِئْنَا .

فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّات ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا . قَالُوا : يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِى أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا »(١).

ومثل ذلك روح المؤمن ، لكن على صفة أدنى مما جاء في الشهيد . فأخرج أحمد قال : حدثنا محمد بن إدريس يعني الشافعي، عن مالك، عن ابن شهاب،

---

(١) مسلم (ح/١٨٨٧) .

عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحـدث عن رسول الله قال : « إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ »[(١)].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : " وهذا إسناد صحيح عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة .

وقال : قوله : « **يعلق** » أي يأكل .

وفي هذا الحديث أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة ، أما أرواح الشهداء ـ فكما تقدم ـ في حواصل طير خضر ، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها "[(٢)]اهـــ .

وقال بعض أهل العلم بأن المراد بالمؤمن هنا هو الشهيد ، وأن هذا مع حديث عبد الله بن مسعود من باب حمل المطلق على المقيد .

وجملة القول في هذا الباب ما قرره ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ في هذا الحديث قال : " وليس هذا موضع نظر ولا قياس لأن القياس إنما يكون فيما يسوغ فيه

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٥) ، والحديث أخرجه مالك في الموطأ (ح/ ٦٤٣) ، والنسائي (٤/ ١٠٨) ، وابن ماجة (ح/ ٤٢٧١) من طرق عن الزهري به .

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٢٧) .

الاجتهاد ، ولا مدخل للاجتهاد في هـذا البـاب ، وإنما نسلم فيـه لمـا صح مـن الخبر عمن يجب التسليم له "[1] اهـ.

ثم إن الأصل في الميت عدم السماع ، وعدم الإدراك لغير ما يعاين من حياة البرزخ، وكل ما جاء بالدليل على خلاف الأصل فلا يُقاس عليه ، ولا يتعدى محله .

قال تعالى في عزير ـ عليه السلام ـ : M | { ~ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ © يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ ´ L [البقرة: ٢٥٩] . أخرج الطبري (٣/٣٧) بإسناده إلى قتادة قوله :M ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ © يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ L قال ذكر أنه مات ضحى ، ثم بعثه غيبوبة الشمس فقال : M © يَوۡمًا L ، ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال : Mأَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ L فقال : بل لبثت مائة عام "اهـــ .

فهذا نبي كريم ، لبث ميتاً مائة عام ، فلم يدر بحركة الكون حوله ، ولما سئل Mقَالَ © يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍۖ L ، وإنما استدل بما عاين من حركة الشمس ، أمـا ما غاب عنه منها وهو ميت فلم يدركه؛ ولم يـدر قدر كم تقلب

---

(١) التمهيد (١١/ ٦٤) .

عليه الليل والنهار .

ومن فقه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب ما استدلت به السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ في قصة أصحاب القليب بقوله تعالى :M <

= > ?@ A L .

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لنبي الله صلى الله عليه وسلم : ((يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها)) .

أما قول النبي صلى الله عليه وسلم ـ في أصحاب القليب ـ : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ » ـ فليس بقادح في فهم عمر وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ في عدم سماع الأموات .

ووجه الجمع ما حكاه البخاري عن قتادة قال :" أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة "[١]اهـ .

وقال الحافظ : " قال ابن التين : لا معارضة بين حديث ابن عمر والآية، لأن الموتى لا يسمعون بلا شك ، ولكن إذا أراد الله إسماع ما ليس من شأنه السماع لم يمتنع ، كقوله تعالى : M إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ L : الآية ، وقوله تعالى :

([١]) انظر البخاري (٣٩٧٦ ، ٣٩٧٧ ، ٣٩٧٩ ، ٣٩٨٠) .

Mفَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا L الآية ... قال الحافظ : وسيأتي في المغازي قول قتادة : " إن الله أحياهم حتى أسمعهم كلام نبيه توبيخاً ونقمة "[١] اهـ .

قلت : مراد ابن التين بالآية قوله تعالى : M < = > ? @ A L، وبحديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ما قال : اطلع النبي صلى الله عليه وسلم على أهل القليب فقال : « وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقّاً؟ » .

فقيل له : تدعو أمواتاً ؟ فقال : فقال : « مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لا يُجِيبُونَ »[٢].

وقد حكى الحافظ وجهاً خاصاً بالجمع بين الأخبار؛ أن هذا الإسماع حصل في وقت السؤال ، وهذا بعيد لأن الإسماع حصل بعد ثلاث ليال ، والأول أصح . فهذا خاص بأهل القليب دون غيرهم .

أما ما يختص به حال دون حال فكسماع الميت قرع نعال مشيعيه ، كما روي من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه حدثهم أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) انظر فتح الباري (٣/٢٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ١٣٧٠) .

وسلم قال : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانه، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ، لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ؟.. الحديث» [١] .

وهذا حين ترد روحه إلى جسده عند السؤال ، كما في حديث البراء عند أحمد[٢]، وهذا معنى قول عمرو بن العاص: ((فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني فشنوا عليَّ التراب شناً ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ، ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي))[٣]. فهذا في وقت وحال مخصوص فلا يقاس عليه غيره من سائر الأوقات والأحوال .

سماع النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة والسلام عليه :

روى حسين بن على الجُعْفي، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن أوس بن أوس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ،

---

(١) أخرج البخاري (١٣٧٤) .

(٢) انظر المسند (٤ /٢٨٧) .

(٣) مسلم (ح/ ١٢١) .

وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ، كَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ ؟ - يَعْنِي بَلِيْتَ - فَقَالَ : إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ »[1] .

وأبو الأشعث اسمه شراحيل بن آدة تابعي ثقة ، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر ثقة ، وهو غير عبد الرحمن بن يزيد بن تميم ، فهذا ضعيف ، وحسين بن علي الجعفي يرويه عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر[2] .

والحديث صححه ابن خزيمة ، والحاكم ، ووافقه الذهبي ، وله شواهد أخرى في عرض الصلاة على النبي عليه صلى الله عليه وسلم .

وقوله « أَرَمْتَ » أي بليت على وزن ضربت ، وأصله أرممت فحذفت إحدى الميمين كقولهم : ((ظلت)) في ((ظللت)) ذكره الخطابي[3] .

---

(١) أخرج أحمد (٤/ ٨) ، والنسائي (٣/ ٩١-٩٢) ، وأبو داود (ح/ ١٠٤٧) ، وابن ماجة (ح/ ١٠٨٥، ١٦٣٦) ، وابن خزيمة (١٧٣٣، ١٧٣٤) ، ومن طريقه ابن حبان (ح/ ٩١٠)، وأخرجه الحاكم (١/ ٤١٣) من طرق عن حسين بن علي به .

(٢) انظر النكت الظراف (تحفة الأشراف ٢/ ٣).

(٣) انظر لسان العرب ((مادة رمم)) : (١٢/ ١٤) ، وغريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٢٠) .

وروى حيوة بن شريح ، عن أبي صخر حميد بن زياد ، عن يزيد بن عبد الله ابن قسيط ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلاَّ رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ »[1] .

وقد حسنه العلامة العلامة الألباني . وفي خبر ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن الله عز وجل قد وكل ملائكة يبلغون النبي صلى الله عليه وسلم السلام عن أمته ، وفي هذا دلالة أنه لا يسمع ذلك بنفسه .

فروى سفيان الثوري ، عن عبد الله بن السائب ، عن زَاذَانَ ، عن عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ لِلهِ مَلاَئِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ ، يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلاَمَ »[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٧) ، وأبو داود (ح/ ٢٠٤١) ، والبيهقي في السنن (٥/ ٢٤٥) ، والطبراني في الأوسط (ح/ ٤٤٩) من طريق عبد الله بن يزيد المقرئ ، عن حيوة به .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧، ٤٤١، ٤٥٢) ، والنسائي في المجتبى (٣/ ٤٣) ، وفي الكبرى (ح/ ١٢٠٦، ١١٩٣٤، ١١٩٣٥) ، وفي عمل اليوم والليلة (ح/ ٦٦) ، والدارمي (ح/ ٢٧٧٤) من طرق عن سفيان به ، ورواه الحاكم (٢/ ٤٥٦) من طريق أبي إسحاق الفزاري ، عن سفيان والأعمش كلاهما عن عبد الله السائب به .

كذا رواه عن سفيان تسعة من أصحابه ، منهم يحيى بن سعيد ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ووكيع ، ومعاذ بن معاذ ، وعبد الله بن نمير ، وعبد الرزاق . ورواه أبو إسحاق الفزاري ، عن كل من سفيان ، والأعمش ، عن عبد الله السائب باللفظ ذاته .

وخالف عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد هؤلاء جميعاً فرواه عن سفيان ، عن عبد الله بن السائب ، عن زاذان، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلامَ ». قَالَ : وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُحَدِّثُونَ وَنُحَدِّثُ لَكُمْ ، وَوَفَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ ، فَمَا رَأَيْتُ مِنَ خَيْرٍ حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ ، وَمَا رَأَيْتُ مِنَ شَرٍّ اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ لَكُمْ » .

كذا أخرجه البزار وقال : " وهذا الحديث آخره لا نعلمه يروى عن عبد الله إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد ".

فخالف عبد المجيد ثقات أصحاب سفيان الذين أخرجوه من دون هذه الزيادة في آخر الحديث : ((حياتي خير لكم ...)) ، ولم يتابعه عليها أحد كما ذكر البزار .

وعبد المجيد بن عبد العزيز ، قال الحافظ : صدوق يخطىء ، ولو كان ثقة لما قبل منه مخالفة هؤلاء الثقات من أصحاب سفيان ، فتفرده بالـزيادة عـلى هؤلاء الثقات خطأ بلا أدنى شك . والخطأ لا يعتبر به ولا له ، وقد حكم العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ على هذه الزيادة بالشذوذ .

فالذي في حديث عبد الله بن مسعود أن الله عز وجل قد وكل ملائكة بإبلاغ النبي صلى الله عليه وسلم السلام عن أمته . وهذا أيضاً مما يدلك على أن هذا الباب لا يدخله القياس ، ومن وجوه كثيرة منها :

قال ابن حجر : " وقد استشكل ذلك من جهة أخرى وهو أنه يستلزم استغراق الزمان كله في ذلك لاتصال الصلاة والسلام عليه في أقطار الأرض ممن لا يحصى كثرة، وأجيب بأن أمور الآخرة لا تـدرك بالعقل وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة والله أعلم " [(١)] اهـ.

وقد وردت التفرقة بين سماعه صلى الله عليه وسلم بنفسه سلام القريب ، وبين سماعه سلام البعيد بواسطة الملائكة ، كما في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مـن صلى عليَّ عند قبري سمعته

---

(١) فتح الباري (٦ /٤٨٨) .

ومن صلى علي نائياً أُبلغته ". لكن هذا حديث موضوع .

لكن روي في عموم المؤمنين ما يشهد لهذا الفرق في سماع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما ذكره ابن عبد البر وصححه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ رَجُلٍ كانَ يَعْرِفُهُ في الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلاَّ عَرَفَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ » [1].

ويعضد هذا الفرق في صفة سماع النبي صلى الله عليه وسلم بين القريب والبعيد، الأحاديث التي فيها أمره صلى الله عليه وسلم بزيارة الميت والسلام عليه .

والمقصود أن سماع النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم سلام البعيد منه إنما هو بواسطة الملائكة التي تبلغه عن أمته السلام، وهذا مما اختص به النبي صلى الله عليه وسلم ، أما سماعه سلام القريب من قبره فليس من خصوصياته

---

(1) وقد صححه عبد الحق كما نقله عنه ابن عبد الهادي في الصارم المنكي (١ / ٢٢٤) ، وقد احتج به ابن تيمية في عدة مواضع ، وقد أشار العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ (الضعيفة ح /٤٤٩٣) إلى أنه قد وقف عليه أخيراً في مخطوطة المحمودية في المدينة ، وكأنه ـ رحمه الله ـ قد ضعفه ، ونقل عن ابن رجب قوله "يشير إلى رواته كلهم ثقات وهو كذلك إلا أنه غريب بل منكر " . وكأن هذا الأقرب . والله تعالى أعلم .

وإنما هو عام للمؤمنين .

أما زيادة عبد المجيد التي زادها على ثقات أصحاب سفيان : « حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُحَدِّثُونَ وَنُحَدِّثُ لَكُمْ، وَوَفَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ ، فَمَا رَأَيْتُ مِنَ خَيْرٍ حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ ، وَمَا رَأَيْتُ مِنَ شَرٍّ اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ لَكُمْ » فشاذة ، ولو كانت هذه الزيادة صحيحة ، لما كان فيها أي دلالة على صحة طلب الدعاء منه صلى الله عليه وسلم بعد موته فضلاً عن دعائه صلى الله عليه وسلم، فأي فرق شاسع بين حقائق الإسلام ومطامع أهل الأهواء والبدع .

ومن أبين ما يستدل به على بطلان الشكوى إلى الميت فضلاً عن الطلب منه أو به ، ترك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الاستسقاء به بعد موته ، مع شدة حاجتهم ، وعظيم اضطرارهم إلى الماء كما كان في عام الرمادة ، فهذا عدم في موضع البيان فيفيد بيان العدم ؛ إذ الترك في مقام البيان بيان بعدم المشروعية ، بل توسلوا بدعاء الأحياء منهم ؛ مثل العباس والأسود بن يزيد الجرشي في زمان معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، فدل هذا على أنهم لم يعرفوا من

معاني التوسل إلا طلب الدعاء من الحي[1] . وإلا فبهم من الاضطرار والضر ما يلزمهم معه طلب الدعاء منه صلى الله عليه وسلم أو به لو كان مشروعاً .

وهذا إجماع إقراري من الصحابة لا حيلة لأحد في دفعه وهم أعرف الناس بحقوق النبي صلى الله عليه وسلم في الدارين .

والمقصود أن هذه الأحاديث ونحوها في حياة الأنبياء والشهداء والمؤمنين في البرزخ قد جاءت على صفة مخصوصة ، فلا يقاس عليها غيرها من مظاهر الحياة ، إذ الحياة في البرزخ غير معقولة المعاني فيدخلها القياس ، فهي موقوفة على الدليل السمعي .

أما القبوريون فقد جرفهم هذا القياس إلى غياهب الشرك والضلال ، وقد وصف شمس الدين الأفغاني بعض مفردات هذا الضلال ثم قال : " الحاصل أن تصرف الأموات عند القبورية أقوى من تصرف الأحياء ؛ فلذا يرجحون الاستغاثة بالأموات على الاستغاثة بالأحياء عند إلمام الملمات ، وهذا من أعظم الحجج على أنهم أبعد غوراً في الوثنيات .

---

(1) وما يجدر التنبيه عليه أن من أهل البدع من يستدل على خلاف ذلك بزيادات منكرة وأسانيد مهلهلة لا ترقى لإثبات نوافل الأعمال فضلاً عن أحكام الاعتقاد .

ولأجل أن الاستغاثة بالأموات ، أرجح عند القبورية منها بالأحياء عند الملمات ـ ترى القبورية يدعون ويرغبون في الحج إلى القبور ، ولا سيما القبور المعظمة للإستغاثة بالمقبور . وإليك بعض الأمثلة لذلك [الحواشي أيضاً له] :

المثال الأول : قبر موسى الكاظم[١] (١٨٣هـ) :

قالوا : (قبر موسى الكاظم ترياق مجرب لإجابة الدعاء)[٢] .

وللقبورية الوثنية عجائب في زيارة مشهده[٣] .

المثال الثاني : قبر معروف الكرخي (٢٠٠هـ) .

قالوا : (قبره ظاهر هناك يتبرك به ، وأهل بغداد يستسقون به ويقولون :

---

(١) هو : الإمام القدوة أبو الحسن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ابن الصادق ، ووالد الرضي ، وجد الجواد ، له مشهد عظيم في بغداد ، دفن معه حفيده الجواد ، كما أن لأبنه الرضي مشهداً عظيماً بطوس ، وكلها جعلت أوثاناً تعبد من دون الله .

ترجمته في : تاريخ بغداد (١٣ / ٢٧ـ٣٢) ، والسير (٦ / ٢٧٠ـ٢٧٤) .

(٢) انظر : البصائر للدجوي الديوبندي الوثني ٤٢ ، وإثبات الكرامات للسجاعي ٦ط . التركية ، ٦٣٢ط . بولاق .

(٣) انظر بوارق الحقائق للرواس الرفاعي الصيادي الوثني (٢١٣ـ٢١٤).

قبره ترياق مجرب)[1] .

وقالوا : (قبره معروف بقضاء الحوائج)[2] .

المثال الثالث : قبر محمد السلطان الحنفي (٨٤٧هـ) :

قال الشعراني الوثني (٩٧٣هـ) ، وتبعه كثير من خلطائه الوثنية :

(قال سيدي محمد رضي الله عنه في مرض موته : من كانت له حاجة فليأت إلى قبري ويطلب حاجته أقضها له ؛ فإن[3] ما بيني وبينكم غير ذراع من تراب ، وكل رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب فليس برجل)[4]

---

(١) طبقات الصوفية للسلمي ٨٥، والرسالة للقشيري (١/ ٦٥) ، وطبقات الأولياء لابن الملقن ٢٨١ ، ونور الهداية والعرفان لمحمد أسعد النقشبندي ٦٠ ، والبراءة لابن مرزوق ٢٤٥ ، والتوسل له ١٧٢ ، وصلح الإخوان لابن جرجيس ٥٨ ، والتبرك للأحمدي ١٥٩ .

(٢) انظر : طبقات الأولياء لابن الملقن ٢٨١ .

(٣) هكذا في النسختين ، وهو غلط ، والصواب : ((فإنه ما بيني وبينكم ...)) ، لأن كلمة ((ما)) حرف نفي ، فلا يصح كونها اسماً لحرف ((إن)) .

(٤) لواقح الأنوار في طبقات الأخيار (٢/ ٩٦) ط دار الجيل ، (٢/ ٨٨) ط دار الفكر ، وأنوار الإنتباه للبريلوي ١٨١، والتوسل والزيارة للفقي ١٩٠، وجامع الكرامات للنبهاني (١/ ٢٧٠) ، ونفحات القرب والإتصال بإثبات التصرف للأولياء بعد الإنتقال للحموي الحنفي الوثني ٢٢٣ ط بولاق ، ١٤ ط . التركية .

قلت : أساطير القبورية الوثنية التي تتعلق بالقبور والمقبور خارجة عن نطاق البيان ، والبنان ، وفي هذه الأمثلة كفاية لبيان وثنيتهم ... " انتهى كلام شمس الدين .

وفي هذا إن شاء الله مقنع في بيان حقيقة التوحيد عند القبوريين ، وفيما تقدم من البيان عما خرجوا إليه من العظائم في العقل والدين ردع لمن أراد الله به خيراً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فهذا تمام الكلام عن الأصل الأول في حصر القبوريين التوحيد في اعتقاد الخلق والتأثير .

الأصل الثاني : التوسع في استعمال المجاز العقلي[1]

المجاز كله باطل[2] ، ولكننا نبحث هنا كذب القبوريين على علماء البيان ومقرري المجاز أنفسهم ؛ فننظر كيف احتال منظرو القبورية للشرك الصريح الجلي بالخروج بنظم الكلام إلى ما لا يُحتمل لا في العقل ولا في اللسان .

---

(1) المجاز العقلي حكم من جهة العقل ـ لا اللفظ ـ بأن الإسناد في النظم قد جرى على وجه التجوز بتنزلة ما لا يستحق منزلة ما يستحق ، قال عبد القاهر (أسرار البلاغة ص٣٧٨) : " والنكتة أن المجاز لم يكن مجازاً لأنه إثبات الحكم لغير مستحقه ، بل لأنه أُثبت لما لا يستحق تشبيهاً ورداً له إلى ما يستحق .." اهـ.

(2) لم يعرف القول بالمجاز عن أئمة السلف ، يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : " وبكل حال فهذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة ، لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم ، كمالك والثوري، والأوزاعي، وأبي حنيفة، والشافعي ، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو كالخليل، وسيبويه، وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم .

وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ولكن لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وانما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية " اهـ.

انظر مجموع الفتاوى (٧/٨٧-١١٩) ، (٢٠/٤٠٠-٤٩٧) .

وقد استعمل الجهمية والمعتزلة المجاز في نفي الصفات الثابتة للباري سبحانه وتعالى =

أما الألفاظ في باب طلب الانتفاع بالميت الصالح نبياً كان أو ولياً أو ما يعتقد فيه ذلك على ثلاثة مراتب متباينة :

الأول : سؤال الميت بلفظ صريح وذلك بطلب الفعل منه مثل : " اشفني ، اقض ديني ، انصرني " . والأصل أن سؤال الميت بهذه الألفاظ لكونه أقرب عند الله .

الثاني : طلب الدعاء من الميت مثل " ادع الله لي " [١] .

الثالث : التوسل بالميت سواء بذاته أو جاهه أو حرمته .

فالأول الشرك الجلي الصريح وهو ـ كما تقدم ـ من جنس قول المشركين : L f e d c b a ` M . وأما الثاني والثالث فمن البدع والذرائع المفضية إلى الشرك .

= وهجر حقيقة معانيها بدعوى أنها لا تليق بالباري سبحانه ، من غير اعتبار أن اللفظ إذا أضيف للباري كانت حقيقته على ما يليق به سبحانه ، وإذا أضيف للعبد كان على ما يليق به ، وقد كان للمجاز أثرٌ عظيم جداً في هذا الباب من التحريف ، حتى سماه ابن القيم ـ رحمه الله ـ طاغوتاً .

(١) وفي المسألة تفصيل يتعلق بالشبهة في سماع الميت ، ما بين حال القرب وغيره ، وبين النبي صلى الله عليه وسلم وغيره .

وقد شيد القبوريون قولهم بالمجاز العقلي ـ كما تقدم من أقوالهم ـ على أصلهم الأول في حصر التوحيد في اعتقاد الخلق والتأثير ، وهذا جرف هارٍ ، وقد عرفت ما خرجوا إليه من العظائم في العقل والدين معاً ، وما بني على الباطل فهو باطل ، وقد تقدم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اَلدُّعَاءَ هُوَ اَلْعِبَادَةُ » . وتقدم أن صرف شيء من العبادة لغير الله شرك به تعالى .

ولكن نحن هنا نشير إلى : كيف احتال منظرو الشرك على تصحيح بل واستحباب ألفاظ الشرك الصريحة الجلية بدعوى المجاز العقلي .

يقول علوي المالكي: " فالقائل يا نبي الله اشفني واقض ديني لو فرض أن أحداً قال هذا فإنما يريد اشفع لي في الشفاء ، وادع لي بقضاء ديني ، وتوجه إلى الله في شأني ، فهم ما طلبوا منه إلا ما أقدرهم الله عليه وملكهم إياه من الدعاء والتشفع .

هذا هو الذي نعتقده فيمن قال ذلك ، وندين الله على هذا ؛ فالإسناد في كلام الناس من المجاز العقلي الذي لا خطر فيه على من نطق به "[1]اهـ.

([1]) مفاهيم يجب أن تصحح (٩٥) .

وهكذا يمرر المالكي سؤال غير الله عز وجل بألفاظ الشرك الصريحة " اشفني ، اقض ديني " بعيداً عن دائرة الحظر فضلاً عن وصف الإشراك ، بدعوى المجاز العقلي، وهذا أخذه بفصه وأصله من شيخه عبد الله الغماري[1] .

والقرينة كما قلنا هو حصر التوحيد في اعتقاد الخلق والتأثير ، يقول محمد الطاهر : " إذا وجد في كلام المسلمين إسناد شيء لغير الله يجب حمله على المجاز العقلي ولا سبيل لتكفير المسلمين ، فإذا قال العامي من المسلمين : نفعني النبي أو الولي ؛ فإنما هو يريد الإسناد المجازي والقرينة على ذلك أنه مسلم موحد لا يعتقد التأثير إلا لله وحده لا لغيره "[2] اهـ

وقد تقدم أن اعتقاد الخلق والتأثير قد تحقق به مَنْ وصفهم الله عز وجل في كتابه بالمشركين ، فهو اعتقاد مشترك بين المسلم الموحد والمشرك ، فلا يصلح قرينة لدفع ما قام بهذه الألفاظ الصريحة " اشفني ، اقض ديني " من معاني الشرك الجلي إلى ما هو دونه من البدعة .

---

(١) في محكمه ص١٠٨، انظر ما تقدم من أقوال أئمة القبورية ص٢٢ .

(٢) دعاوى المناوئين (ص١٩٧) .

وجميع العقلاء على يقين من أن العامي لا يخطر بباله هذا الباب من أبواب البلاغة ، ونعلم بالضرورة أن العاقل إذا نادى زيداً أراده وخصه بقصده دون عمرو ، ونعلم أن العامي لم يكن ليعجزه أن يقول " ادع لي " لو أراد ذلك ، وأنه لم يعدل عن " ادعو لي " إلى " اشفني " إلا لغرض ومعنى قد قام بقلبه .

والأصل أن العقلاء لا يسألون غيرهم ما لا يقدرون عليه ، قال تعالى : M ? @ A B C D E F L [القصص: ١٥]، فهذه استغاثة بالحي فيما يقدر عليه ، ولولا اعتقاده بقدرته ما استنصره ، فكذلك إذا استغاث العاقل بالميت دل على اعتقاده في قدرته على تحقيق مطلوبه، وإلا لم يكن عاقلاً .

قال الآلوسي: "ولا أري أحداً ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعلم الغيب ، ويسمع النداء ، ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير أو دفع الأذى وإلا لما دعاه ، ولما فتح فاه "[١] اهـ.

إن هذا كله يجعل الاستدلال بالمجاز العقلي تدليساً مكشوفاً، وحيلة زين بها منظرو القبورية الشرك الصريح لأتباعهم ريثما تتشرب قلوبهم به؛ فلا تقدر على إنكاره ، ولا تقوى على رده .

---

(١) روح المعاني (٦/١١٦) .

ولكننا نناقش هنا حيلة منظري الشرك في دعوى نيابة هذه الألفاظ بعضها عن بعض بدعوى المجاز العقلي ، أو قل إن شئت فريتهم على أهـل المجـاز أن هذه النيابة مما يحتمل في اللسان .

ولو كان المجاز حقاً لما نفعهم في هذا التراكيـب بعينهـا : " اقـض دينـي " و" اشف مريضي " إلا بقدر ما تقام علـيهم البينـة بـأنهم عـلى مـا كـان عليـه مشركو قريش سواء بسواء ؛ فإن التخصيص بالنداء في النظم بــ" يـا نبـي " أو " يا بدوي " كما مثل الغماري بحكاية القروية التـي قالـت :" اشـف ابنـي يا بدوي"؛ يخرج هذا التركيب عن طبيعة المجاز العقلي ؛ إذ يمتنع هنـا إسـناد الفعل " اشف " لغير المذكور في النظم " النبي أو البدوي " ، فلا يـرد تقـدير غير المخصص بالنداء ، فلا يصح هنا في التقدير " يا رب اشفني " .

بخلاف احتمال النظم لتعدد جهة الإسناد مثل قولهم " أنبت الربيع البقل " على تقدير " أنبت الله البقل عند الربيع " .

ومن صور تخصيص المذكور في النظم بـالإرادة قولـه تعـالى:M \ ]
^ _ ` a b c d e L [سورة غافر : ٣٦] فهل ترى فيـه إمكان تقدير الإسناد لغير هامان ؟ بالطبع لا . فلا يصح تقـديره للعـمال مـثلاً ليكون الإسناد في (ابن لي) قد جرى على وجه الحقيقة ، باعتبار أن العمال هم

الذين يباشرون البنـاء . قـال التفتـازاني في تحقيـق قـول الـسكاكي في المجـاز العقلي[١] : " (و) يستلزم (أن لا يكون الأمـر بالبنـاء) في قولـه تعـالى:، [يـا هامان ابن لي صرحا] (لهامان) لأن المراد به حينئذ هو العملة أنفسهم، واللازم باطل لأن النداء له والخطاب معه "[٢] اهـ.

فهذا باب من الإسناد منع ما فيه من التخصيص بالنداء تقـدير فـاعلاً غـير المذكور، إذا أسند إليه الفعل عدل بـالنظم مـن المجـاز إلى الحقيقـة ، بخلافـه حيث يمكن تعدد جهات الإسناد في نحو " شـفاني الطبيـب " عـلى تقـدير " شفاني الله عند علاج الطبيب " .

ومع أن المحقيقين لم يشترطوا في المجاز العقلي احتمال التركيب تعدد جهات الإسناد، وهذا قول عبد القاهر الجرجاني[٣] والناس في هذا الباب عالة عليـه؛

---

(١) أنكر السكاكي المجاز العقلي التركيبي ورده إلى المجاز اللغوي الإفرادي ، وجعله نوعـاً من الاستعارة التمثيلية قد جرى على وجه المبالغة .

(٢) مختصر المعاني ص ٣٨.

(٣) يقول عبد القاهر في دلائل الإعجاز ص٢٩٦: " واعلـم أنـه لـيس بواجـب أن يكـون للفعل فاعل في التقدير إذا أنت نقلت الفعل إليه عدت به إلى الحقيقـة، مثـل أنـك تقـول في " ربحت تجارتهم "، " ربحوا في تجارتهم" ، وفي "يحمي نساءنا ضرب" ، " نحمي نساءنا=

إلا أن كثيراً من الأصوليين وعلماء البيان يسمون هذا النوع من الإسناد بالمجاز الذي لا حقيقة له . إنما مرادهم أن النظم قد استوفى الكلام بحيث لم يعد من الممكن تقدير فاعل آخر غير المذكور فيه ، ومثلوا له بقولهم : " شابت لمة الليل " يريدون به ظهور تباشير الصبح ، فوصف سواد الليل باللمة وهي

= بضرب "، فإن ذلك لا يتأتى في كل شيء ، ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل في قولك: " أقدمني بلدك حق لي على إنسان" فاعلاً سوى الحق، وكذلك لا تستطيع في قوله :

صيرني هـواك وبي لحيني يُضرب المثل

وقوله :

يزيدك وجهـه حسناً إذا ما زدتـه نظراً

أن تزعم أن لصيرني فاعلاً قد نقل عنه الفعل فجعل (للهوى) كما فعل ذلك في ربحت تجارتهم ، ويحمي نساءنا ضرب ، ولا تستطيع كذلك أن تقدر لـ (يزيد) في قوله (يزيدك وجهه) فاعلاً غير الوجه ، فالاعتبار إذن بأن يكون المعنى الذي يرجع إليه الفعل موجوداً في الكلام على حقيقته "اهـ.

وفي مقابلة تحقيق عبد القاهر نرى توسعاً يضطر أصحابه إلى تقدير فاعلاً هو الله عز وجل في كل موضع لا يمكنهم فيه النظم من تقدير فاعل ، حيث تكون جهة الإسناد واحدة لا يخطر بالبال غيرها . وهذا التوسع من حقه أن يفسد نظم الكلام أصلاً ويحيله كله إلى المجاز فلا يوصف منه شيء بالحقيقة . =

الشعر الفاحم ، وبياض الصبح بالشيب من المجاز الإفـرادي ، لكـن لـيس في النظم فاعل آخر غير " لمة الليل" يمكن إسناد الفعل " شـاب " إليـه ليعـدل بالنظم من المجاز إلى الحقيقة.

= يقول ابن عاشور (التحرير والتنوير٦/١٩٧): " وأما كون الله هو موجد الأشياء كلهـا فذلك ليس مما تترتب عليه حقيقة ومجاز؛ إذ لو كان كذلك لكان غالب الإسناد مجازاً عقليـاً وليس كذلك ، وهذا مما يغلط فيه كثير من النّاظرين في تعيين حقيقة عقليـة لـبعض مـوارد المجاز العقلي . ولقد أجاد الشيخ عبد القاهر إذ قال في «دلائل الإعجاز» « اعلـم أنـه لـيس بواجب في هذا أن يكون للفعل فاعل في التّقدير ...» .

ولقد وهِم الإمام الرازي في تبيين كلام عبد القاهر فطفـق يجلـب الـشواهد الدالـة عـلى أن أفعالاً قد أسندت لفاعل مجازي مع أن فاعلها الحقيقي هو الله تعالى ، فإن الـشيخ لا يعـزب عنه ذلك ، ولكنه يبحث عن الفاعل الذي يسند إليـه الفعـل حقيقـة في عـرف النـاس مـن مؤمنين وكافرين ، ويدل لذلك قوله : «إذا أنت نقلت الفعل إليه» أي أسندتَه إليه "أهـ.

ويقول (٩/٢٥٧) : " ولا التفات في الاسـتعمال إلى أن الله هـو خـالق الأحـوال كلهـا ؛ إذ ليس ذلك معنى الفاعل الحقيقي في العُرف ، ولو لوحظ ذلك لم ينقـسم الكـلام إلى حقيقـة ومجاز عقليين ، وإنما الفاعـل الحقيقـي هـو مـن يـأتي بالفعـل ويـصنعه كالكاتـب للكتابـة والضارب بالسيف للقتل " اهـ.

قلت: هذا التوسع في نسبة الأفعال إلى الله عز وجل ، له ارتباط مـن وجـه بمـسألة إسـقاط فعل العبد بالكلية ، وعدم وصفه به إلا من طريق المجاز ، وهذه بدعة الجبريـة المعروفـة =

= وهي في مقابلة بدعة القدرية الذي يجرون الأفعال بمعزل عن قدر الله وإرادته ، ومنهم من يحتال على الشناعة فيأبى وصف العبد بالفعل ويصفه بالكسب ، فإذا قيل له وما الكسب !؟ لم يقدر فيه على حد أو رسم أو وصف ، فلا جرم أنه يلزمه مثل قول الجبرية .

وقول الغلاة بالجبر هو أصل قول بعض القبوريين في معرض الاستدلال على حصر التوحيد في الخلق والتأثير : الفاعل هو الله وحده ، يريدون بهذا الإطلاق أنه لا فعل للعبد أصلاً . وهذا ضلال كبير .

أما أهل السنة فإنهم يصفون العبد بفعله ، ويصفون الباري سبحانه بفعله ، وفعل العبد مخلوق ، وفعل الله هو الخلق ، وفعل الله من الله ليس بمخلوق ، وهو بائن من المخلوق المفعول ، فخلق القتل والزنا والكتابة غير فعل القتل وفعل الزنا وفعل الكتابة ، مثل ما أن خلق السماوات غير السماوات نفسها . قال البخاري ـ رحمه الله ـ (خلق أفعال العباد ف٦٢١) : " وكذلك مؤدى جميع لغات الخلق من غير اختلاف بينهم، إنما هو الفاعل والفعل والمفعول، فالفعل صفة والمفعول غيره ، وبيان ذلك في قوله تعالى : ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الكهف : ٥١] .

ولم يُرد بخلق السماوات نفسها ، وقد ميز فعل السماوات من السماوات ، وكذلك فعل جملة الخلق وقوله : ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ وقد ميز الفعل والنفس ولم يصر فعله خلقاً ... "اهـ.

وقال البخاري ـ رحمه الله ـ في وصف اختلاف الناس في الفعل والفاعل والمفعول (خلق أفعال العباد /ف٦٢٤) : " واختلف الناس في الفاعل والمفعول والفعل ، فقالت القدرية : الأفاعيل كلها من البشر ، ليست من الله . =

هذا وجه من النظر في التركيب " اشفني يا بدوي " يتعلق بما فيه من التخصيص بالنداء .

ثم إن الشرط الأولي في المجاز العقلي أو الحكمي أو الإسنادي ــ عند من يقول به ـ هو تثبيت الفعل مبنى ومعنى وقد تقدم قول عبد القاهر : " فالاعتبار إذن بأن يكون المعنى الذي يرجع إليه الفعل موجوداً في الكلام على

= وقالت الجبرية : الأفاعيل كلها من الله .

وقالت الجهمية : الفعل والمفعول واحد ، لذلك قالوا لـ (كن) : مخلوق .

وقال أهل العلم : التخليق فعل الله وأفاعيلنا مخلوقة لقوله تعالى : M ! " #
$ % ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 L [سورة تبارك : ١٣-١٤] . يعني السر والجهر من القول .

ففعل الله صفة الله ، والمفعول غيره من الخلق "أهـ.

فسر العبد وجهره مخلوقان مفعولان ، وخلق السر والجهر غيرهما ، والخلق فعل الله وصفته دون المفعول المخلوق .

والمقصود أن العبد يوصف بفعله كالضرب والكتابة والقتل والزنا ، والله عز وجل يوصف بفعله وهو خلق ذلك ، والتوسع في وصف الله عز وجل بفعل العبد كما يفعل أصحاب المجاز العقلي بدعة جبرية معروفة .

حقيقته "[1] ؛ إذ أن تثبيت الفعل على حقيقته هو الطريق لمعرفة وجود المجاز في النظم بإسناده إلى غير مستحقه، ألم تر أنهم لما ذكروا الجمع بين المجاز الإفرادي اللغوي ، والمجاز الإسنادي في تركيب واحد كما في " أحياني اكتحالي برؤيتك " جعلوا في أحياني مجازاً إفرادياً بمعنى سرني ، ثم لما أردوا تقرير الإسناد المجازي ردوا الفعل أحياني إلى حقيقته فقالوا : أسند الإحياء إلى الاكتحال مع أن المحيي هو الله تعالى ؟.

فلابد بكل حال عند تقدير المسند إليه في الحقيقة من تثبيت الفعل، ألم تر أن من قدر في " شفاني الطبيب " حقيقة هي " شفاني الله عند علاج الطبيب " قد ثبت الفعل " شفاني " ولم يعدل به إلى غيره ، كذا في " أنبت الربيع البقل " قد

([1]) انظر هامش ص١٣٥ ، وهذا هو الفرق بين المجاز في اللفظ أو الإفرادي ، والمجاز العقلي أو الإسنادي . وقال عبد القاهر في دلائل الإعجاز ص٢٩٣ في قول الشاعر :

فَلوْ صاحَبْتِنا لَرَضِيتِ عَنَّا ... إذا لَمْ تَغْبُقِ المِئةُ الغُلاما)

يريد إذا كان العام عام جدب وجفت ضروع الإبل وانقطع الدر حتى إن حلب منها مئة لم يحصل من لبنها ما يكون غبوق غلام واحد ، فالفعل الذي غبق مستعمل في نفسه على حقيقته غير مخرج عن معناه وأصله إلى معنى شيء آخر ، فيكون قد دخله مجاز في نفسه ، وإنما المجاز في أن أسند إلى الإبل ، وجعل فعلاً لها، وإسناد الفعل إلى الشيء حكم في الفعل، وليس هو نفس معنى الفعل "اهـ.

ثبت الفعل أنبت إذ هو بوصلة التقدير ، ودليل النظم على وجود فاعل غير المذكور فيه .

والفعل هنا " اشف " بخلاف " ادع " أو " اشفع " يقيناً ، ولا يحتمل نيابة " ادعوا لي بالشفاء " عن " اشفني " وإلا احتملت النيابة بين " اغفر لي ، وادخلني الجنة ، ونجني من النار " وبين " ادعوا لي بالمغفرة ، ودخول الجنة ، والنجاة من النار " ، وقائل هذا منادٍ على نفسه بالخبل ، والكلام في أصول الإسلام لا يسمع من أصحاب هذا الهذيان .

فإن اعترض معترض بأن مغفرة الذنوب وإدخال الجنة لا يقبل تعدد الإسناد ؟. قلنا : هذا إذا بقي المسند على حاله كما هو الشرط في الإسناد العقلي، أما وقد هدمت شروطه وأدخلت المجاز على المسند ذاته ؛ فغيرته إلى معنى " ادع " بقرينة المسلم الموحد ، فأي محظور والقرينة متحققة بالأولي فيما له به تعالى اختصاص كطلب المغفرة ودخول الجنة !؟

ومن عجائب حيل القبوريين في هذا ما ذكره الغماري فيما يقبح من سؤال الأموات قال : " أو سؤاله ما يختص به الله كغفران الذنوب ، فليقل فيه ما شاء من أنواع التقبيح فإنه كذلك ، وأكثر من ذلك ، ولكن ليس أحد من

المسلمين يفعله أو يقصده "[1] .

ثم لم يلبث الغماري نفسه أن دس من خلال النقل عن ابن الحاج التوجه إلى الميت مباشرة بالسؤال والاستغاثة ، بل وطلب غفران الذنوب فقال نقلاً عن ابن الحاج : " ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم ، ويجزم بالإجابة ببركتهم، ويقوي حسن ظنه في ذلك ، فإنهم باب الله المفتوح ، وجرت سنته سبحانه وتعالى في قضاء الحوائج على أيديهم وبسببهم ، ومن عجز عن الوصول إليهم فليرسل بالسلام عليهم ويذكر ما يحتاج إليهم من حوائجه ومغفرة ذنوبه وستر عيوبه إلى غير ذلك ؛ فإنهم السادة الكرام لا يردون من سألهم ولا من توسل بهم ولا من قصدهم ولا من لجأ إليهم ".

هذا كلام ابن الحاج بحروفه وهو مالكي ومن أشد الناس محاربة للبدع ، وما ألف كتابه المدخل إلا لهذا "[2] اهـ.

وهكذا رجع الغماري ومرر سؤال الميت غفران الذنوب وستر العيوب على لسان ابن الحاج بعد أن أثنى عليه بأنه من أشد الناس على البدع ، ومرر على لسانه أيضاً الجمع بين سؤال الأموات والتوسل بهم " ولا يردون من سألهم

---

(1) في محكمه ص٦٥.

(2) في محكمه ص٩٢.

ولا من توسل بهم " حيث غاير كما ترى بين سؤالهم ، وبين التوسل بهم ، بعد أن افتتح كلامه بقوله : " ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم " .

فأثبت للناس سنية كلا الفعلين : دعاء الأموات ، والدعاء بهم ، بعد أن أثنى على ابن الحاج هذا الثناء العاطر .

ولبّث قليلاً تر أعجب من ذلك في تعلق القبوريين بالأولياء .

فالمقصود أن المسند وهو الفعل في المجاز العقلي مراد حال التقدير ، فالفعل (ابن) في قوله تعالى : M ^ _ ` a L مراد مبنى ومعنى ، فلا ينافي القصر في النداء من جهة النظم على هامان الإسناد المجازي ؛ باعتبار أن حق الفعل بغض النظر عن قضية النظم أن يسند إلى مباشر البناء وهم العمال .

إن هذا العدول بالفعل (ابن) من المستحق (مباشر البناء) إلى غيره (الوزير) هو معنى التجوز في الإسناد هنا، ولكنه لن يقتضي تقدير فاعل آخر غير المخصص بالنداء وهو هامان لاستحالة ذلك ، ولن يقتضي تقدير مسند غير الموجود في النظم (ابن) لأنه عمدة الإسناد العقلي ودليله، ولكن بتعيين معنى في هذا الفعل يلائم المسند إليه (الوزير) ثم لا شيء أكثر من ذلك[1]؛

---

(1) فالوزير يبني بتهيئة الأسباب وهي كثيرة جداً منها أمره العمال ، وهذا يدلك على =

وذلك باعتبار دلالة العقل على أن الوزير لا يباشر البناء بنفسه ، وأنه لا يقدر عليه وحده .

فهذا فرق بين دلالة العقل حيث تتعدد جهات الإسناد كما في " أنبت الربيع البقل " ، وبين دلالته حيث لا يحتمل النظم سوى جهة واحدة ، مثل: " شابت لمة الليل " لاسيما في حال التخصيص بالنداء .

والآن انظر في هذا التركيب " اشفني يا رسول الله " أو " اشف ابني يا بدوي " كما حكى الغماري في محكمه عن القروية [١] فإن الفعل " اشف " مراد مبنى ومعنى كما تقدم . وتثبيت الفعل مع دلالة العقل على أن التأثير لله عز وجل وحده يقتضي أحد تقديرين إما (اشفني يا رب بدعاء البدوي) وإما (اشفني يا بدوي بشفاعتك) .

وتخصيص البدوي بالنداء يمنع إرادة الأول يقيناً ؛ فإذا كل من المسند والمسند إليه مراد في نظم القائل (اشفني يا بدوي) فلا ينوب عنه بحال (اشفني يا رب بدعاء البدوي) لا من طريق الحقيقة ولا من طريق المجاز لا

= ضرورة بقاء الفعل " ابن " في التقدير ، إذ لا يقال للوزير : اشتر الجص ، والخشب ، واجمع العمال ، والنجارين .... إلى آخر ذلك .

(١) في محكمه ص ١٠٨.

اللغوي ، ولا العقلي ؛ فلم يبق في دلالة المجاز العقلي على هذا النظم (اشفني يا بدوي) إلا تقديره بـ (اشفني يا بدوي بشفاعتك فيَّ) .

وسؤال الحاجة من الميت بهذا اللفظ الجلي الصريح ؛ طلباً لشفاعته وقربه من الله عز وجل هو حقيقة ما كان عليه مشركو قريش لا يختلف لا في اللفظ ولا في القصد . لا في الفعل ولا في العقد ، وهو المعنى القائم بقولهم : M ` a b c d e f L . وقد تقدم هذا[١] .

والمقصود أن هذا النوع من الإسناد العقلي قد اضطربت فيه أقوال القائلين بالمجاز ؛ حيث يمنع التخصيص بالنداء تقدير فاعلاً غير المذكور في النظم ، وحيث تمنع طبيعة المجاز العقلي أو الإسنادي القائمة على تثبيت المسند تغيير مبناه أو معناه ، إذ أن ضابط المجاز العقلي ـ عند من قال به ـ أنه فعل واحد يتنازع حقيقته فاعلان أحدهما على سبيل التجوز والثاني على وجه الحقيقة .

إن هذا يكشف لك حيلة عبد الله الغماري في تمرير ألفاظ الشرك الجلي بدعوى الإسناد العقلي ، إذ ساق الأمثلة كلها مساقاً واحداً ، من غير تفريق بين نظم يمتنع معه تقدير فاعل آخر غير المذكور فيه ، وبين آخر لا يمتنع معه

---

(١) انظر ص ٢٧.

هذا التقدير[1] .

وبكل حال فإن نيابة الفعل " ادع " عن الفعل " اشف " بـدعوى المجـاز العقلي حديث خرافة يجعل من حيلة منظري القبورية أقرب للتفسير البـاطني للألفاظ منه لأبواب البلاغة وعلم البيان .

وبكل حال نحن لدينا لأصـحاب المجـاز العقـلي أمثلـة مـن كـلام أئمـة القبورية ، ومن كتبهم ، وهي بلا شك أولى بالنظر مـن حدوتـة الغـماري عـن تلك القروية الساذجة التي استباح بها إفساد علم البيان .

لدينا أمثلة تستحق النظر لنرى أي مجاز عقلي يمكن أن يرقـع هـذا الخـرق الهائل لأصل الإسلام !؟ وهل ينطبق على هذه الأمثلة هذا العموم الذي أتى به المالكي !؟

فالمالكي يقول بأن كل مـن قـال : " يـا رسـول الله اغثنـي اشـفني " إنـما يقصد الله في الحقيقة ، وهؤلاء أئمة القبورية يقولون : " لا تقل يـا الله فتغـرق ولكن قل يا حنفي ، ويا فلان " . فأين الحقيقـة وأيـن المجـاز !؟ وأي تفـسير باطني يمكن أن يرقع به مدعو المجاز العقلي هذا الخرق !؟

---

(1) انظر محكمه ص١٠٨ .

من أقوال أئمة القبوريين :

عقد الشيخ شمس الدين السلفي الأفغاني ـ في رسالة دكتوراه له بعنوان جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ـ مبحثاً بعنوان ((**الاستغاثة بغير الله ولاسيما الأموات ، أنفع للمكروب وأسرع لقضاء الحاجات عند القبورية من الاستغاثة بخالق الكائنات**)) ، ثم أورد فيه بعض الأمثلة فسأوردها بحروفها وهوامشها [1]، وما أعلق به سأجعله بين قوسين هكذا [يقول العبد الفقير :].

قال شمس الدين الأفغاني :

المثال الأول : ما قاله أحمد رضا خان الأفغاني ، الملقب بعبد المصطفى ، إمام البريلوية (١٣٤٠هـ) : إن سيد الطائفة الجنيد البغدادي[2] (٢٩٨ هـ) ـ جاء

---

(١) (١٠٥٥/٢) لقد نقلت ما كتبه شمس الدين في رسالته بحروفه وهوامشه حتى يسهل الرجوع إلى المصادر لمن كانت له حاجة في التثبت أو الاستزادة، والرسالة غنية بهذه المصادر التي فيها أقوال القوم ، وهذا أحد أنفع ما في الرسالة، وسيجد من يطالع الرسالة شيئاً أغرب من الخيال .

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ، شيخ الصوفية . انظر طبقات الصوفية=

إلى نهر دجلة ليعبره ، فقال : ((يا الله)) ، ومشى عليه كما يمشي على الأرض !!! فرآه شخص ، وأراد أن يعبره فلم يجد سفينة ، فقال للجنيد : إني أريد أن أعبر هذا النهر ، فكيف السبيل ... ؟

فقال له الجنيد : " قل : يا جنيد ـ يا جنيد ـ مردداً لهذا النداء فتعبره .

فقال الرجل : ياجنيد ، ياجنيد . مرددا له ومكرراً له كالورد والذكر ، ومشى على النهر كما يمشي على الأرض فلما وصل إلى وسط النهر وسوس إليه الشيطان ، وقال له : إن الجنيد كان يقول : ((يا الله . يا الله .)) ، ويقول لك : قل : يا جنيد . يا جنيد ! فَلِمَ لا تقول أيضاً : يا الله . يا الله ؟؟؟

[يقول العبد الفقير : تأمل هذه وسوس له الشيطان فذكر الله لا الجنيد، فليرقع لنا أصحاب المجاز العقلي هذه]

فجعل الرجل يقول : ((يا الله ، يا الله)) ، فغرق في الماء فصرخ ونادى الجنيد وقال : أيها الحضرة !! قد غرقتُ !!!

فقال له الجنيد : " قل : يا جنيد . يا جنيد . مكرراً مراراً .

= للسلمي ص ١٥٥.

فجعل الرجل يقول : ((يا جنيد . يا جنيد)) مراراً وتكراراً ، فنجا من الغرق ، وعبر النهر .

ثم قال الرجل للجنيد : " أيها الحضرة ، ما السر في أنك كنت تقول : يا الله . فتعبر النهر ؟؟ ولما قلتُ : يا الله .. غرقتُ ؟

قال له الجنيد : " نعم أيها الأحمق ! إنك لم تصل بعد إلى منزلة الجنيد وتطمع في الوصول إلى الله مباشرة ؟؟؟ الله أكبر "[١] .

[يقول العبد الفقير : ويبعد صحة نسبة هذا الكلام إلى الجنيد ؛ لكن تداولها بين القبوريين على أنها دليل الولاية ، ومن حقوق الأولياء ، كافٍ في بيان مذهبهم في عبادة الأولياء ، وهذا موضع الشاهد عندنا.]

المثال الثاني : ما استدل به النبهاني (١٣٥٠هـ) قائلاً : " إن سيدي محمد الحنفي[٢] قدس الله سره (؟؟؟) فرش سجادته على البحر وقال لمريده : قل :

---

(١) الملفوظات (١ /١٣١) .

(٢) هو محمد الملقب بشمس الدين المعروف بالسلطان، حنفي الفروع وثني الاعتقاد توفي سنة ٤٨٧هـ ، جعلوه في منزلة الغوث والقطب ، وجعلوا الكون كله من البحر والبر والحيوانات حتى الحيتان وغير ذلك مسخراً له ، وجعلوه عالماً بالمغيبات وأسرار الصدور وخواطر القلوب ، ولهم عجائب من الوثنيات فيه .راجع : طبقات الشعراني الوثني =

يا حنفي ، وامش ، فمشى المريد خلفه ، فخطر له : لِمَ تقول : يا حنفي ؟؟؟ هلا قلت : يا الله ؟؟؟؟

فلما قالها ـ أي قال : يا الله ـ غرق ، فأمسك الشيخ الحنفي بيده وقال له : " أنت الحنفي تعرفه ، فكيف بالله[1] ؟؟ فإذا عرفت الله فقل : يا الله ".

يشير إلى أن الوسائط لا بد منهم. ، لولا الوسائط لكنا من الوسائط . "[2]

المثال الثالث : ما قاله الإمام الآلوسي (١٢٧٠ هـ) في تفسير قوله تعالى :

M ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا à مِّنكُم â يُشۡرِكُونَ L [النحل: ٥٤] :

(وفي الآية ما يدل على أن صنيع ....[3] .

=(٢ / ٨٨ ـ ١٠١) طبعة دار الجيل (٢ / ٨١ ـ ٩٢)، وجامع الكرامات للنبهاني(١ / ٢٦١ ـ ٢٧٠) لتعرف أن هؤلاء القبورية وثنية حقاً .

(١) هكذا في الأصل ، هو كلام ركيك ، والصواب أن يقال : (أنت إلى الآن ما عرفت الحنفي ، فكيف الله)) أو كلام مثله .

(٢) شواهد الحق (ص ٤٤٧) عن ((لمع المقامات العوال في زيارة سيدي حسن الراعي وولده عبد العال)) لمصطفى بن كمال الدين ابن عمر البكري الخلوتي الحنفي الفروع ، الوثني الاعتقاد ، ترجمته في سلك الدرر للمرادي (٤/١٩٠-٢٠٠) والأعلام للزركلي(٧/٢٣٩).

(٣) يقول العبد الفقير : قد تقدم هذا المثال من قبل ص٨٤ .

المثال الرابع : ما قاله الآلوسي أيضاً في تفسير قوله تعالى : M r s t u v w x y z { | } ~ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ L [الزمر: ٤٥] .

وتبعه ابنه نعمان الآلوسي (١٣١٧هـ) ، وحفيده شكري الآلوسي (١٣٤٢هـ) قال : (وقد رأينا كثيراً من الناس على نحو هذه الصفة التي وصف الله تعالى بها المشركين : يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ، ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق هواهم ، واعتقادهم فيهم ، ويعظمون من يحكي لهم ذلك ، وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده ، ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه عز وجل ، وسرد ما يدل على مزية عظمته وجلاله ، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة ، وينسبونه إلى ما يكره .

وقد قلت[1]يوماً لرجل يستغيث في شدة ببعض الأموات ، وينادي : يا فلان ! أغثني ـ فقلت له[2]: قل : يا الله ، فقد قال سبحانه : M وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ L [البقرة: ١٨٦].

---

(١) مقولة القول قوله : ((قل : يا الله ..)) الآتي .

(٢) هكذا تكرار وتأكيد لفظي لقوله السابق : ((وقد قلت)) فعلى هذا لا معنى لدخول الفاء عليه ، والكلام لا يخلو من نوع من الركاكة ، ولو قال : " وقد رأيت يوماً رجلاً=

فغضب ، وبلغني أنه قال : فلان [الآلوسي] منكر على الأولياء .

وسمعت عن[1]بعضهم أنه قال : ((الولي أسرع إجابة من الله عز وجل)) !!! وهذا من الكفر بمكان ، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان))[2] .

المثال الخامس : ما قاله كثير من القبورية الصوفية في تحريف قوله تعالى :

M > ? @ A B C L [النجم : ٢٩] .

(أي أعرض عمن استغرق واستهلك في ذات الله تعالى ، فلا يذكره . وإن ذكره حصل له فتور في الشهود ، فلا تكلفه بالذكر !!

=يستغيث .. ، فقلت له)) أو قال : ((وقد سمعت يوماً رجلاً يستغيث .. ، يقول يا فلان ... ، فقلت له :)) لكان أولى .

(١) هكذا في الأصل ، والصواب : ((وسمعت بعضهم يقول : الولي أسرع ..)) ، لأن السمع لا يوصل بكلمة عن ، إلا إذا كان متضمناً لمعنى ((الأخذ)) وذلك في التتلمذ على شخص ، كما يقال : فلان سمع عن فلان ، و فلان ، و فلان ، وسمع عنه فلان ، وفلان ، أي أخذ عن فلان ، وأخذ عنه فلان .

(٢) روح المعاني : (٢٤ / ١١) ، وجلاء العينين (ص ٤٨٩ــ ٤٩٠) ، وغاية الأماني : (٢ / ٣١٤ـ٣١٥) .

وإليه يشير خاتم الأولياء الشيخ الأكبر[١] محيي الدين رضي الله عنه بقوله :

بـــذكر الله تـــزداد الذنوب   وتنطمس البصائر والقلوب
وترك الذكر أفضل منه حالاً   فـــإن الشمس لها غروب[٢]

المثال السادس : ما استدل به النابلسي الحنفي الوثني (١١٤٣ هـ) [٣]:

قال : (وكذلك وقع لسيدي محمد الحنفي الشاذلي[٤] : أنه كان يعدي من مـصر إلى الروضــة ماشــياً عــلى المــاء هــو وجماعتــه ، فكــان يقــول لهــم : قولوا :" يا حنفي ، وامشوا خلفي ، وإياكم أن تقولوا : يا الله تغرقوا[٥]".

---

(١) هو حري بأن يقال فيه : ((الشيخ الأكفر مميت الدين عليه من الله ما يستحقه)) ، انظر ص ١٣١٦،١٣١٧،٣١٣٧،١٣٢٤،١٣٢٥،١٣٣٨، ١٣٥٠ .

(٢) الحدائق الوردية الخاني (ص ١٦١) ، والأنوار القدسية للسنهوي (ص١٦١ـ١٦٢) .

(٣) هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني الفلسطيني، أحد كبار الوثنية الصوفية القبورية ، كان حنفياً في الفقهيات ، وثنياً وثنياً في القبوريات ترجمته في: سلك الدرر(٣ / ٣٠) ، وتاريخ الجبرتي (١/١٥٤) ومعجم المطبوعات لسزكين : ١٨٣٢ ، والأعلام للزركلي (٤/٣٢) .

(٤) سبقت ترجمته (ص١٠٥٧) .

(٥) هكذا في الأصل ، وهو غلط نحوياً ركيك محض ، والصواب : ((فتغرقوا)) ، راجع كافية ابن الحاجب(ص ١٩٦) ، لأنه يقصد الجواب للنهي، بل المقام مقام السببية فلا بد =

فخالف شخص منهم وقال : يا الله ، فزلقت رجله فنزل إلى لحيته في الماء ، فالتفت إليه الشيخ وقال : يا ولدي إنك لا تعرف الله تعالى ، حتى تمشي باسمه على الماء ، فاصبر حتى أعرفك بعظمة الله تعالى ، ثم أسقط الوسائط . انتهى "[1].

[يقول العبد الفقير : لاحظ تكرار هذه القصة والتركيز عليها في عدة كتب للقبورية كدليل للولاية] .

المثال السابع : ما قاله واستدل به ذالكم النابلسي الحنفي الوثني المذكور : " إن معروف[2] الكرخي[3] كان يقول لأصحابه :" إن كان لكم إلى الله حاجة فأقسموا عليه بي، ولا تقسموا عليَّ به تعالى "فقيل له: لِمَ؟

فقال : " هؤلاء لا يعرفون الله تعالى ، فلم يجبهم ، ولو أنهم عرفوه

=من الفاء .

(١) كشف النور عن أصحاب القبور (ص٢٠) .

(٢) هكذا وقع في الأصل وهو غلط ، والصواب : " إن معروفاً الكرخي " .

(٣) هو : أبو محفوظ معروف بن فيروز (أو فيرزان) البغدادي ، أحد شيوخ الصوفية، توفي سنة(٢٠٠هـ).راجع السير (٩/١٣٩) .

لأجابهم " [١].

[يقول العبد الفقير : هذا لا يصح ـ إن شاء الله ــ عن معروف ، ولكن موضع الشاهد هو اعتقاد القبوريين في الأولياء ، ونسج الأساطير حولهم ، والتي تدل بوضوح على حقيقة العبودية التي يبذلونها لهم]

المثال الثامن : أن بعض كبار الصوفيه القبورية الوثنية ركب البحر ومعه مريد فهاجت ريح خيف منها فجعل يقول : (يا الله) فطفق المريد يقول : (يا الله) أيضاً فكاد أن يغرق فأشار إليه الشيخ : أن يهتف باسمه ، فهتف باسمه فنجا " [٢].

المثال التاسع : ما اطلعت عليه من عجائب الوثنية : وهو : (أن امرأة كف بصرها ، ومات ولدها ، فنادت وليها [أي إلهها ومعبودها الباطل] وقالت : " أما الله ، فقد صنع ما ترى !!! ولم يبق إلا حسبك فيَّ " [٣].

المثال العاشر : ما قالوه من أن : " الاستغاثة بالمخلوق ليكون شافعاً إلى الله

---

(١) كشف النور (ص٢٠) .

(٢) معارج الألباب (ص٢١٧) .

(٣) معارج الألباب : ٢٠٨ . [وقد مر هذا المثال انظر ص٩٩]

ووسيلة إليه ، لا شك أن ذلك أرجح ، لا كراهة فيه ، إذا كان المستغاث أهلاً لذلك ... "[١] . انتهى كلام شمس الدين .

قلت : وهذا قليل من كثير ، قد اشتهر واستفاض عن هؤلاء القبوريين ، وهم يعلنونه ويتدينون به ، وقد نقض به هؤلاء القبوريون ما قرروه من حصر توحيد الله عز وجل في اعتقاد الاستقلال بالتأثير والتصرف ؛ فنسبوا إلى الأولياء والمشايخ حقائق ومعاني تختص بالربوبية ، مثل الإقطاع والتصرف في هذا العالم ، بل وقدموا حقهم في هذا التصرف على حق الله عز وجل ، فصاروا كما ذكر الآلوسي إلى حال أشد من الضلال القديم

وإذا كان شر البلية ما يضحك فلدينا هنا أساطير قبورية لا تخلو من طرفة ذكرها الشيخ شمس الأفغاني في رسالته السالفة الذكر (١٠٨٩/٢) ، فنذكرها أيضاً بحروفها وهوامشها. قال :" للقبورية استغاثات كثيرة أذكر منها ما يلي: .... ٣-٥ استغاثاتهم بالشيخ معصوم السرهندي (١٠٩٩هـ) الحنفي الصوفي[٢].

---

(١) كشف الارتياب للعاملي : ٢٩٣ .

(٢) ابن الشيخ أحمد بن عبد الأحد الملقب بالإمام الرباني ، ومجدد الألف الثاني ، إمام الصوفية المجددية (١٠٣٤هـ) ـ إمام الصوفية النقشبندية المجددية بعد أبيه ، ترجمته في =

قالوا : " ومن كراماته : أن أحد خلفائه الكرام الخواجة محمد صديق كان في سفر على فرس فجفلت ، فسقط إلى الأرض وبقيت رجله في الركاب ، وجعلت الفرس تعدو به حتى أيقن بالهلاك ؛ فاستغاث بشيخه المذكور [محمد معصوم] .

قال : فرأيته حضر ، وأوقفها ، وأركبني .

ومنها : أن الشيخ محمد صديق المذكور وقع في البحر ولم يكن يعرف السباحة فكاد أن يغرق ؛ فناداه مستغيثاً به ، فحضر وأخذ بيده ، وأنقذه من الغرق .

ومنها : أنه رضي الله عنه كان جالساً يوماً مع أصحابه في رباطه ، إذ ابتلت يده الشريفة وكمه إلى إبطه ؛ فعجبوا من ذلك ، وسألوه عنه ، فقال قدس الله سره : استغاث بي رجل من المريدين تاجر كان راكباً في السفينة وقد كادت أن تغرق ، فخلصتها من الغرق ، فابتل لذلك كمي ويدي .."[١].

= المواهب السرمدية للأربلي ٢٠١ـ٢١٤، والأنوار القدسية ١٩٢ـ٢٠٠ للسنهوتي ، وجامع الكرامات للنبهاني (١ / ٣٣٣ـ٣٣٥) ، والحدائق الوردية للخاني (١٩١ـ١٩٦) .

(١) المواهب السرمدية (٢١٠ـ٢١٣) ، والأنوار القدسية(١٩٥ـ١٩٦) ، وجامع الكرامات للنبهاني (١ / ٣٣٣) ، والحدائق الوردية للخاني ١٩٥ .

٦-أسطورة استغاثتهم بالسلطان محمد الحنفي المصري الصوفي (٨٤٧هـ)[١] : قال الشعراني أحد أئمة القبورية (٩٧٣هـ) : " كان يتوضأ يوماً فورد عليه وارد[٢] فأخذ فردة قبقابه [إحدى نعليه وحذائه] فرمى بها وهو داخل الخلوة [أي في داخل الغرفة] ؛ فذهبت في الهواء ، وليس في الخلوة طاق[٣] تخرج منها [أي لم يكن في الغرفة منفذ ولا شباك] .

فقال لخادمه : " خذ هذه الفردة [إحدى نعليه الباقية] عندك حتى تأتيها أختها ؛ فبعد زمان جاء رجل من الشام مع جملة هدية وقال : جزاك الله عني خيراَ ؛ إن اللص لما جلس على صدري ليذبحني ـ قلت في نفسي ياسيدي محمد يا حنفي ؛ فجاءته [أي فجاءت فردة القبقاب من الغيب فأصابته] في صدره فانقلب مغمى عليه ، ونجاني الله عز وجل ببركته "[٤].

---

(١) سبقت ترجمته في (ص ١٥٠٧) .

(٢) الوارد في اصطلاح هؤلاء الصوفية الوثنية القبورية : (كل ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمد من العبد) ، تعريفات الجرجاني ٣٢٢ .

(٣) هكذا في الأصلين : والصواب : " ولم تكن في الخلوة طاقة تخرج منها " .

(٤) لواقح الأنوار في طبقات الأخيار (٢ / ٩٤ــ٩٥) ط . دار الجيل ، (٢/٨٧) ط . دار الفكر ، وأنوار الإنتباه في حل النداء بيا رسول الله للبريلوي (١ / ١٨٠) ضمن رسائل الرضوية .

٧ـ أسطورة وثنية أخرى في الاستغاثة :

قالوا : " كان وليان متعاصران صديقان ، وكان بينهما بحر ، فطبخ أحدهما الحلوى فأعطى خادمه شيئاً منه ، وقال له : اذهب إلى صديقي وأعطه ، فقال : يا مرشدي كيف أعبر البحر ؟؟؟

فقال : إذا وصلت إلى شاطئ البحر ـ فقل له : إني جئت من قبل الذي لم يجامع زوجته إلى اليوم فتحير الخادم ، لأن الولي كان له أولاد !!! ، ولكنه امتثل أمره واستغاث به وقال ما لقنه ، فعبر البحر ، فوصل إلى الولي الآخر وأعطاه الحلوى فأكله وقال له : سلم على مرشدك .

فقال الخادم : كيف أعبر البحر ؟؟؟

فقال له : إذا وصلت إلى البحر فقل له : إني جئت من قبل الذي لم يأكل شيئاً منذ ثلاثين سنة ، فتعجب الخادم ، لأنه رآه يأكل الحلوى !!! ولكنه سكت تأدباً ، ومشى .

فلما وصل إلى البحر استغاث به وقال ما لقنه ، فعبر البحر .

فما وصل إلى مرشده سأله عن حقيقة أمرهما؛ فقال أفعالنا ليست لأنفسنا .

[يقول العبد الفقير : صدق والله فإن أفعالهم لإبليس ، فهم خلصائه وعماله في إضلال خلق الله عز وجل، وكثير من هؤلاء يستبيحون أعظم

المحرمات كالزنا وشرب الخمر بهذه الدعوى : أفعالنا ليست لنا]

قلت : هذه كانت عدة أمثلة لوثنيات هؤلاء الوثنيين في استغاثاتهم بالأموات عند الكربات ، قد ذكرتها لتكون شاهدة على وثنيتهم وارتكابهم لأوضح الشركيات، وقد سئمت منها مع أنها بمنزلة القطرة من بحر وثنياتهم. انتهى كلام شمس الدين .

فتأمل ما مر وسل هؤلاء القبوريين الذين حصروا التوحيد في اعتقاد استقلال الله عز وجل بالخلق والتأثير ، وجعلوه دليلاً لتصحيح ألفاظ الشرك الجلي فاحتالوا حتى على علم البلاغة والبيان : وأي شيء تبقى من اعتقاد الخلق والتأثير لله عز وجل !؟

وانظر إلى ما تقدم من شهادة الآلوسي:" ويتقبضون من ذكر الله تعالى وحده ، ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه عز وجل ، وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة ، وينسبونه إلى ما يكره ."

واجعلها في مقابلة قوله : " يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ، ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق هواهم ، واعتقادهم فيهم ، ويعظمون من يحكي لهم ذلك " .

وانظر إلى ما تقدم من شهادته : " وسمعت من بعضهم أن الولي أسرع في الإجابة من الله ".

انظر تعرف معنى قول الآلوسي : " وفي الآية ما يدل علـى أن صـنيع أكثـر العوام اليوم : من اللجوء إلى غيره تعالى ممن لا يملك لهم ، بل ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً ـ عند إصابة الضر لهم ، وإعراضهم عن دعائه تعالى عند ذلك بالكلية ـ سفه عظيم ، وضلال جديد ، لكنه أشد من الضلال القديم ".

انظر تعرف المرسى الأخير الذي أراده منظرو الشرك ـ من أصحاب حيلة المجاز العقلي ـ للمسلمين ؛ فاحتالوا بهذه الحيلة اللفظية ريثما تتشرب القلوب بشرك لا يرقعه تفاسير غلاة الباطنية ؟.

فهذا تمام الكلام على معنى التوحيد عند القبوريين .

ثانياً : حقيقة التوحيد عند أهل السنة

التقسيم الاستقرائي الحاصر لعلماء أهل السنة لمعاني التوحيد في القرآن والسنة النبوية ، يحصر تلك المعاني في ثلاثة أقسام : توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، تنتظم جميعها في نوعين: توحيد الإثبات والمعرفة، وتوحيد القصد والطلب[1] .

وفي الجملة فإن الذي ميز أهل الإيمان من أهل الكفر هو إثبات العبادة لله عز وجل وحده ، ونفي الشفاعة الشركية . وقد تقدم بيان العلاقة بين إثبات هذه الشفاعة الشركية وبين صرف ما يستحق لله عز وجل من العبادة لغيره .

أما توحيد الإلهية فهو الذي جاءت به الرسل والذي أخذ الله عز وجل عليه الميثاق في عالم الذر كما في آية الميثاق M 6 7 8 9 : ; <
= > ? @ A B C E F H J K L
M N O P Q R S T U V W X Y Z [
\ ] ^ _ ` a b c d L [الأعراف : ١٧٢ـ١٧٣] ،
فقوله تعالى : M B C L يدل على أن توحيد الربوبية ، والذي هو

---

(١) انظر بعض أقوال أهل العلم في القول السديد ص ١٦-٥٥.

الإقرار بأنه تعالى هو الرب المستقل بالإيجاد والتأثير ؛ يستلزم توحيد الإلهية المنافي للشرك L X W V U TM . وقد تقدم في هذا حديث أنس رضي الله عنه[١] ، والشيء قد يعبر عنه بملزومه كما يصح أن يعبر عنه بلازمه .

ومن هذا الباب قول إبراهيم الخليل عليه السلام (هذا ربي) كما قال تعالى:M < = > ? @ A C D E L [الأنعام : ٧٦ـ٧٩] ، أي هذا إلهي ومعبودي!؟ قاله الخليل على سبيل الإنكار على قومه الذين كانوا يعبدون الكواكب ، واختار ابن جرير ـ رحمه الله ـ أنه قاله على وجه الإقرار قبل هدايته واستدل بقوله تعالى: M Y Z [\ ] ^ _ ` L والإنكار أرجح ، لكن هذا موضعه الكلام في النبوات ، وبكل حال فإن خليل الرحمن أجل وأعقل من أن يظن بالكوكب الذي تحويه السماء وتحيط به ؛ أنه خالق هذا العالم بما فيه من أرض وسماء ، ولقد فسر ابن جرير ـ رحمه الله ـ قوله (هذا ربي) بمعنى العبادة والتأله لا الخلق ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :" إن هذا القول لم يقله أحد من العقلاء لا قوم إبراهيم ولا غيرهم، ولا توهم أحدهم أن كوكباً أو القمر أو الشمس خلق

---

(١) انظر ص٤٠ .

هذا العالم، وإنما كان قوم إبراهيم مشركين يعبدون الكواكب زاعمين أن في ذلك جلب منفعة أو دفع مضرة على طريقة الكلدانيين والكشدانيين ، وغيرهم من المشركين من أهل الهند وغيرهم ....

ولهذا قال الخليل M o p q r s L [الأنعام : ٧٧] وقال M أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ © ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا ´ µ ¶ L [الشعراء : ٧٥ــ٧٧] وأمثال ذلك..." [1] أ هـ

والمقصود بيان أن التعبير بالربوبية قد يراد به لازمه من معاني الإلهية ، كما قد يعبر عن معاني الربوبية ضمن معاني الإلهية، قال تعالى: M لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ´ µ ¶ L [الأنبياء : ٢٢] ، وقال تعالى: M ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; L [المؤمنون : ٩١] . فإن هذه الآيات ونحوها دالة على دوام فعل الله عز وجل ، ودوام إرادته ، وأن الإله لا يكون إلا فعالاً مريداً ، إذ لو تعددت الآلهه لتعددت الإرادات واختلفت، وفسد بذلك نظام الكون، فتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية ، كما أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية .

---

(١) منهاج السنة (٢/ ١٩٥) .

ومعنى توحيد الإلهية هو توحيد العبادة ، أي إفراده تعالى بالقصد والطلب، وقد تقدم معنا تفسير النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى :

7 6 5 4 3 1 0 / . - M

9 8 : ; L بالدعاء[١] . فالله هو الإله المعبود . ومن لطائف الاستدلال في هذا الباب ، ما ذكره بعض أهل العلم من معنى اسمه تعالى ﴿الله﴾ .

قال ابن فارس : " (أَلَه) الهمزة واللام والهاء أصل واحد وهو التعبد ، فالإله الله تعالى وسمي بذلك لأنه معبود ، ويقال تأله الرجل إذا تعبد "[٢]اهـ.

وفي كلام ابن فارس إيماء إلى اشتقاق اسم الباري ﴿الله﴾ وقد اختلف في ذلك . قال الخليل بن أحمد :" وليس الله من الأسماء التي يجوز منها اشتقاق فعل كما يجوز في الرحمن الرحيم "[٣]اهـ.

---

(١) انظر ص١٠٥ .

(٢) معجم مقاييس اللغة (١ / ٦٩) .

(٣) العين (٤ / ٩١) . وقد دافع الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن الاشتقاق وبين المراد منه في هذا الباب ، وأنه لا يستدعي تراخي زمني في الوجود بين الأصل والفرع المشتق منه .=

= فقال ـ رحمه الله ـ (الفوائد ص٢٦) : " فائدة : (اسم الله والإشتقاق) : زعم أبو القاسم السهيلي وشيخه ابن العربي أن اسم الله غير مشتق ؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يُشتق منها ، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق ، ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل .

ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألم بقلوبهم ، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية ، كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير ؛ فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب ، وهي قديمة والقديم لا مادة له ، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله .

ثم الجواب عن الجميع أننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى ، لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله ، وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه ـ أي من المصدر ـ أصلاً وفرعاً ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر ، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة .

وقول سيبويه إن الفعل أمثلة أُخذت من لفظ أحداث الأسماء هو بهذا الاعتبار ، لا أن العرب تكلموا بالأسماء أولاً ثم اشتقوا منها الأفعال ؛ فإن التخاطب بالأفعال ضروري كالتخاطب بالأسماء لا فرق بينهما ، فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادي ، وإنما هو اشتقاق تلازم سمي المتضمِن بالكسر مشتقاً والمتضمَن بالفتح مشتقاً منه ، ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى " اهـ.

وقد اختلف من قال بالاشتقاق فيما اشتق اسم الجلالة منـه ، فقيـل (ألَـه) بمعنى عبد ، وقيل (أَلِهَ يَأْلَهُ) بمعنى تحير يعني في عظمة الله عز وجل ، وقيل (الإله) .

وقد حقق الإمام ابن جرير ـ رحمه الله ـ في بحث لطيف من فعـل يفعـل أن الألوهية هي العبادة ، وهذا مما لا خلاف عليـه ، ثـم بنـى عـلى ذلـك قولـه في اشتقاق اسم الباري ﴿الله﴾. قال الطبري : " وأما تأويل قول الله تعالى ذكـره ﴿الله﴾ ، فإنه على معنى ما رُوي لنا عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : هو الذي يَألَهه كل شيء، ويعبده كل خلْقٍ .

إن قال لنا قائل : فهل لذلك في " فعل ويفعل " أصل كان منـه بنـاءُ هـذا الاسم[1]؟

قيل : أما سماعاً من العرب فلا ولكن استدلالاً.

فإن قال : وما دل على أن الألوهية هي العبادة ؟. وأن الإله هـو المعبـود ؟. وأن له أصلاً في "فعل ويفعل" ؟.

قيل: لا تمانع بين العرب في الحكم لقول القائل يصف رجلاً بعبادة، وبطلب

---

(١) يعني في الاشتقاق .

ما عند الله جل ذكره بـ " تألَّه فلان " بالصحة ولا خلاف ، ومـن ذلـك قـول رؤبة بن العجاج :

لله دَرُّ الغانيـات المُـدَّهِ   سَبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ من تَأَلُّهِي[١]

يعني: من تعبدي وطلبي اللهَ بعملي .

ولا شك أن " التألُّه " التفعُّل من " أَلَه يَأْلَهُ "، وأن معنى "أله" ـ إذا نُطق به ـ عَبَدَ اللهَ . وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منـه بـ " فعـل يفعل " بغير زيادة . ثم ساق ابن جرير بسنده إلى ابن عباس أنه قرأ ((وَيَذَرَكَ وإلاهَتَكَ)) .قال ابن جرير : عبادتَك ، ويقال : إنـه كـان ـ يعنـي فرعـون ـ يُعبَد ولا يَعبُد قال: وكذلك كان عبدُ الله يعني ابن مسعود ـ يقرؤها ومجاهد .

قال : ولاشك أن الإلاهة - على ما فسره ابن عباس ومجاهد - مصدر مـن قول القائل: أَلَه اللهَ فلانٌ إلاهةً ، كما يقال: عَبَد الله فلانٌ عبادةً ، وعَـبَرَ الرؤيـا عبارةً . فقد بين قول ابن عباس ومجاهد هذا: أن " أله " عَبد، وأن "الإلاهـة" مصدرُه .... ثم بنى ـ رحمه الله ـ على هذا التقرير كلامه في الاشتقاق فقال: وأن

---

(١) قال المحقق شاكر : المُدَّه : جمع ماده . ومَدْهُ فلاناً [مَدَهَهُ] يَمْدَهُـهُ مَـدْهَاً : نعـت هيئتـه وجماله وأثنى عليه ومدحه . و"استرجعن" : قلن" إنا لله وإنا إليه راجعون ". يقلنها حسرة عليه كيف تنسك وهجر الدنيا ، بعد الذي كان من شبابه وجماله وصبوته!.

يكون قولُ القائل L N M من كلام العرب أصله " الإله ".

فإن قال : وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك ، مع اختلاف لفظيهما؟

قيل: كما جاز أن يكون قوله: M L M N O L [سورة الكهف : ٣٨] .

أصله: لكن أنا هو الله ربي ، كما قال الشاعر:

وَتَرْمِينَنِي بالطَّرْف، أَيْ أَنتَ مُذْنبٌ
وتَقْلِينَني، لكِــنَّ إياكِ لا أَقْلِي

يريد: لكن أنا إياك لا أقلي ، فحذَف الهمزة من " أنا " فالتقت نون " أنـا " ونون " لكنْ " وهي ساكنة ، فأدغمت في نون " أنا " فـصارتا نونًـا مـشددة . فكذلك L N M أصله " الإله "، أسـقطت الهمـزةُ التـي هـي فـاء الاسـم ، فالتقـت الـلام التـي هـي عـين الاسـم ، والـلام الزائـدة التـي دخلـت مـع الألف الزائدة وهي ساكنة ، فأدغمـت في الأخـرى التـي هـي عـين الاسـم ، فصارتا في اللفظ لامًا واحدة مشددة ، كما وصفنا من قول الله ﴿ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ .."[1] اهـ.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (١/ ١٢٣) .

والمقصود أن توحيد الإلهية هو توحيد العبادة ، وأن صرف ما دل الـدليل على أنه عبادة لله عز وجل إلى غيره هو الشرك .

ومن اللطائف استدلال جماعة أهل السنة على الجهمية القائلين بخلق القرآن وخلق صفات الله عز وجل ؟ بمثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ» . وبقوله صلى الله عليه وسلم : « بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ» وأنه لا يستعاذ ولا يستغاث بمخلوق ؛ وفي صحة قول جماعة أهل السنة بطلان قول العيي ذي الغباء الزاعم بجواز الاستغاثة بالمخلوق ، إذ لو كان ما قال كما قال لما كان في قول جماعة أهل السنة أي حجة على الجهمية . فأتى بقول سفيه مخترع تجاوز به ضلال مشايخه في الابتداع .

وتوحيد الإلهية هو التوحيد الذي جاءت به الرسل أجمعون . قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : " وأما التوحيد الأول الذي ذكره ـ أي صاحب المنازل ـ فهو التوحيد الذي جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ، وبه بعث الله الأولين والآخرين من الرسل ، قال تعالى : M وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ´ µ ¶ ¸ دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ L [الزخرف: ٤٥] .

وقال تعالى : M D E F G H I J K L M N P Q R S T U V W X L [النحل: ٣٦]

وقال تعالى :M ! " # $ % & ' ( ) * + , - .

/ L [الأنبياء: ٢٥] .

وقد أخبر الله تعالى عن كل الرسل مثل نوح، وهود، وصالح، وشعيب وغيرهم ، أنهم قالوا لقومهم : اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، وهذا أول دعوة الرسل وآخرها .

قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله »[١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : في الحديث الصحيح أيضا : « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ »[٢]، وقال : « مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[٣].

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢) .

(٢) أخرجه مسلم من حديث عثمان رضي الله عنه (٢٦) (١/٥٥) .

(٣) إسناده حسن : أخرجه أحمد (٥/٢٣٣، ٢٤٧) ، وأبو داود (ح/٣١٦٦) من حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وله شاهد في مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

والقرآن كله مملوء من تحقيق هذا التوحيد والدعوة إليه ، وتعليق النجاة والفلاح ، واقتضاء السعادة في الآخرة به ، ومعلوم أن الناس متفاضلون في تحقيقه ، وحقيقته إخلاص الدين كله لله ، والفناء في هذا التوحيد مقرون بالبقاء ، وهو أن تثبت إلهية الحق في قلبك ، وتنفي إلهية ما سواه ، فتجمع بين النفي والإثبات، فتقول : لا إله إلا الله، فالنفي هو الفناء، والإثبات هو البقاء، وحقيقته أن تفني بعبادته عما سواه ، وبمحبته عن محبة ما سواه ، وبخشيته عن خشية ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، وبموالاته عن مولاة من سواه ، وبسؤاله عن سؤال ما سواه ، وبالاستعاذة به عن الاستعاذة بها سواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ، وبالتفويض إليه عن التفويض إلى مـا سواه ، وبالإنابة إليه عن الإنابة إلى مـا سواه ، وبالتحاكم إليه عن التحاكم إلى ما سواه ، وبالتخاصم إليه عن التخاصم إلى ما سواه .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا قام يصلي من الليل ، وقد روي أنه كان يقوله بعد التكبير « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ ،

وَمُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حَقٌّ ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ ، فَاغْفِرْ لِي ؛ إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ»[1] .

وقال تعالى : M n o p q r s t u v w x y L [الأنعام: ١٤] .

وقال : M ` a b c d e f g h i j L [الأنعام: ١١٤] .

وقـال تعـالى : M w x y z { | } ~ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ © عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن ´ µ ¶ L [الزمر: ٦٤ــ٦٦] .

M p q r s t u v w x y z { | } ~ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي © رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ ´ µ ¶ ¸ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ L [الأنعام: ١٦١ــ١٦٤] .

---

(1) الحديث متفق عليه من حديث ابن عبـاس رضي الله عـنهما ، انظـر لفظـه في البخـاري (ح/١١٢٠) ، ومسلم (ح/٧٧٩) .

وهذا التوحيد كثير في القرآن ، وهو أول الدين وآخره ، وباطن الدين وظاهره ، وذروة سنام هذا التوحيد لأولي العزم من الرسل ثم للخليلين محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم تسليماً ،فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِى خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»[١]" اهـ.

فهذا هو دين الإسلام ، ملة إبراهيم عليه السلام ، وهو الإسلام العام الذي جاءت به الرسل جميعاً قال تعالى : M J K L M N O P Q
R S T U V W X Y Z \ ] ^ _
` a ... الآية L [الشورى: ١٣] .

---

(١) منهاج السنة (٥/ ٣٤٦) . وهذا طرف من حديث أخرجه مسلم (٥٣٢) (١/ ٣٧٧) من حديث جندب بن عبد الله البجلي قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « إِنِّى أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِى مِنْكُمْ خَلِيلٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ »..

قال ابن تيمية: " وقد ذكر في غير موضع أن دين الأنبياء كلهم الإسلام ،
كما قال تعالى عن نوح : M Q R S T U L [يونس: ٧٢] ،
وقال عن إبراهيم : M k l m n o p q r s t u
v w x y z { | } ~ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ L [البقرة: ١٣١ـ١٣٢]، وقال يوسف : M فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ L
[سورة يوسف: ١٠١] ، وقال موسى : M i j k l m n o p
q r L [يونس: ٨٤] ، وقال عن السحرة : M Z [\ ]
^ _ L [الأعراف: ١٢٦] ، وقال عن بلقيس : M ë إِنِّي ظَلَمۡتُ
î ï مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ô L [النمل: ٤٤]، وقال تعالى :
M X Y Z [\ ] ^ _ ` L
[المائدة: ٤٤]وقال تعالى : M y z { | } ~ بِي وَبِرَسُولِي
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ L [المائدة: ١١١] .
وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إنا معاشر

الأنبياء ديننا واحد))[1]، وتنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين واحداً ، وهو الإسلام ، كالدين الـذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإنه هو دين الإسلام أولاً وآخراً ..." [2] اهـ .

أما الشرك فهو عكس الإسلام ، وأصله أكبر أو أصغر ، هو مساواة الله عز وجل بخلقه ، قال تعالى حكاية عن المشركين لما دخلوا النار وعاينوا البوار :

M m n o p q r s t u v w x L [الشعراء: ٩٧ــ٩٨] . وهذا هو المعنى الذي بلغ به الشرك الأصغر مبلغاً كبيراً من الذم ،

---

(١) الظاهر أن الحديث الذي أشار إليه شيخ الإسلام هو ما أخرج البخـاري (ح/٣٤٤٤) ومسلم (ح/١٣٦٥ـ١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم : « أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فِـي الأُولَـى وَالآخِـرَةِ والأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لعَلاَّت، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ».

وليس فيه : ((إنا معاشر الأنبياء)) ، فشبه النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء في اتحاد دينهم واختلاف شرائعهم بأولاد العلات .

قال الحافظ في (الفتح ٦/٥٦٤) : ((الأنبياء أخوة لعـلات)) : والعـلات بفـتح المهملـة الضرائر ، وأصله أن من تزوج إمرأة ثم تزوج أخرى كأنه أعـل منهـا ، والعلـل الـشرب ، وأولاد العلات الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى .. " اهـ .

(٢) منهاج السنة (٥/ ٢٦٥) .

فما عدا الشرك الأكبر المخرج من الملة ، فإن الشرك الأصغر أكبر من سائر الكبائر ؛ إذ هو من العدوان على التوحيد ـ وإن لم يكن على جهة النقض ـ بخلاف سائر الكبائر فإنها عدوان على الأمر والنهي .

وعن وبرة بن عبد الرحمن ، قال : قال عبد الله لا أدري ابن مسعود أو ابن عمر : ((لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً))[1] .

فتأمل فقه صاحب النبي صلى الله عليه وسلم في أن الشرك الأصغر أشد عنده من اليمين الكاذب وقد تكون يمين صبر غموساً تغمس صاحبها في النار . وما ذاك إلا لأن الحلف تعظيم لا يصرف إلا لله عز وجل .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى : L w v u t M :

وهذه التسوية إنما كانت في الحب والتأله ، لا في الخلق والقدرة والربوبية ، وهي العدل الذي أخبر به عن الكفار بقوله : $ # " ! M

L / . - , +) (' & %

[الأنعام: ١] .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/٤١٦) ، وعبد الرزاق (ح/١٥٩٢٩) ، والطبراني في الكبير (٩/ح٨٠٩٢) قال الهيثمي في المجمع : رجاله رجال الصحيح ، وقال العلامة الألباني (الإرواء/٨/٢٨٥) : " إسناده صحيح على شرط الشيخين " .

وأصح القولين أن المعنى : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه كما يحبون الله ويعبدونه "[١] ا هـ .

والمحبة والنصرة ، والتوقير والتعظيم قد يبذل للأنداد أكثر مما يكون لله عز وجل ، ومن تأمل حال القبوريين وأقوالهم وقف على صدق هذا المعنى .

قال ابن تيمية :" والرب تعالى إذا جعل من يحب الأنداد كحبه مشركين، فمن أحب الند أكثر كان أعظم شركاً وكفراً، كما قال تعالى :

M | } ~ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ L [الأنعام: ١٠٨] ، فلولا تعظيمهم لآلهتهم على الله لما سبوا الله إذا سبت آلهتهم[٢].

وقال تعالى : M ^ _ ` a b c d e

f g h i j k m n o p

q r s u v w x y z { } ~

يَحْكُمُونَ L [الأنعام: ١٣٦] .

وقال أبو سفيان يوم أحد : اعْلُ هُبَلُ اعْلُ هُبَلُ .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أَلا تُجِيبُونَهُ ؟

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٣٢) .

(٢) أجرى السب على ظاهره كما تقدم من مذهب ابن حيان انظر ص٥٩ .

قَالُوا : يا رسول الله ، وما نقول ؟

قَالَ : قُولُوا : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ .

وقال أبو سفيان : إن لنا العزى ولا عزى لكم .

قال : أَلا تُجِيبُونَهُ ؟ فقَالُوا : وما نقول ؟

قَالَ : قُولُوا : اللَّهُ مَوْلانَا ، وَلا مَوْلَى لَكُمْ (١) .

ويوجد كثير من الناس يحلف بند جعله لله ، وينذر له ويوالي في محبته ويعادي من يبغضه ، ويحلف به فلا يكذب ، ويوفي بما نذر له ، وهو يكذب إذا حلف بالله ، ولا يوفي بما نذره لله ، ولا يوالي في محبة الله ، ولا يعادي في الله كما يوالي ويعادي لذلك الند(٢) .

فمن قال : إني لا أجد في قلبي أن الله أحب إليَّ مما سواه ، فأحد الأمرين لازم : إما أن يكون صادقاً فيكون كافراً مخلداً في النار ، ومن الذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله .

وإما أن يكون غالطاً في قوله : لا أجد في قلبي هذا ، والإنسان قد يكون في

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٠٤٣) .

(٢) هذا هو ما آل إليه أمر القبوريين .

قلبه معارف وإرادات ولا يدري أنها في قلبه .."[1] اهـ .

فالحاصل : الاتفاق على أن الشرك هو صرف ما يستحق لله عز وجل لغيره، ثم اختلف أهل السنة والقبوريون في تحقيق هذا الذي يستحق لله عز وجل دون غيره .

أما أهل السنة والاستقامة فقالوا : العبرة في تحقيق التوحيد ونفي الشرك بإفراد الله عز وجل بالقصد والطلب والإرادة، وأن هذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب .

أما القبوريون فقالوا : إنه اعتقاد الخلق والتأثير لله وحده دون غيره، وأن هذا هو الفصل بين التوحيد والشرك ؛ وأن من اعتقد ذلك لم ينخرم توحيده أبداً . فقد رأيت ما خرجوا إليه من الضلال والمعاندة لضرورات العقل والدين . ومن تأمل مبلغ هذا الضلال ومفرداته عرف معنى ما : روى أبو الهَيَّاجِ الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : « أَلاَّ أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ لاَ تَدَعَ تِمْثَالاً إِلاَّ طَمَسْتَهُ وَلاَ قَبْراً مُشْرِفاً إِلاَّ سَوَّيْتَهُ »[2].

---

(1) منهاج السنة (٥/ ٣٩٧) .

(2) أخرج مسلم (ح/ ٩٦٩).

ويعرف فضل ما روى حمزة بن المغيرة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا لَعَنَ اللَّهُ قَوْمًا اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[1].

وهذا إسناد حسن ، وفي الحديث دلالة ظاهرة على أن الوثن، كل ما يُعبد من دون الله صنماً كان أو غير صنم، ومن أهل العلم من يفرق بين الوثن والصنم بأن الصنم ما له صورة من إنسان أو حيوان .

---

(1) صحيح لغيره:أخرجه أحمد (٢/٢٤٦) ، والحميدي (ح/١٠٢٥) ، وأبو يعلى (ح/٦٨٨١) ، وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٨٣) ، وابن عبد البر في التمهيد (٥/٤٥) ، من حديث سفيان بن عيينة، ثنا حمزة بن المغيرة ، عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ به .

وهذا إسناد حسن ، حمزة بن المغيرة بن نشيط الكوفي قال ابن معين : لا بأس به ، وكذا قال الحافظ ابن حجر ، وذكره ابن حبان في الثقات . وهو مشهور بهذا الحديث يُذكر به انظر التاريخ الكبير (٣/٤٧) ، بل ويذكر بتفرده به قال الدارقطني في أطراف الغرائب والأفراد:" تفرد به ابن عيينة ، عن حمزة بن المغيرة "اهـ

ومع شهرته بهذا الحديث المتداول لم يجرحه أحد . وفي الجرح والتعديل (٣/٢١٤) " قال عثمان بن سعيد الدارمي : سألت يحيى بن معين ، عن حمزة بن المغيرة الذي يروي عنه ابن عيينة حديث النبي صلى الله عليه: « لا تتخذوا قبري وثناً » . قال: ليس به بأس" اهـ. =

= أما سهيل بن أبي صالح فحديثه لا ينزل عن رتبة الحسن ، وقد حاول دوشتي أو من خرَّج له أحاديثه ، أن يتحاذق بإعلاله بتفرد سهيل به وأنه ليس بحديث مستقل ، وإنما هو زيادة على حديث « **لعن الله اليهود والنصارى**» فلا تقبل من مثل سهيل ، وأنه نفس حديث : « **لا تتخذوا قبري عيداً** » أخطأ فيه سهيل ، وهذا رجم بالغيب لم يقل به معتبر ، ويرد هذا كله أن له شاهداً موافقاً لفظاً ومعنىً ، وهو ما رواه مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «**لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » .

أخرجه مالك في الموطأ (١ /١٧٢) مرسلاً وهو مرسل صحيح .

وأخرجه ابن أبي شيبة (٣/٢٢٦) قال : حدثنا أبو خالد الأحمر سليمان بن حيان، عن ابن عجلان ، عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **اللهم لا تجعل قبري وثناً يصلى إليه ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » .

وأخرج عبد الرزاق (١ /٤٠٦) عن معمر، عن زيد بن أسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **اللهم لا تجعل قبري وثناً يصلى إليه فإنه اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » .

ورواه عمر بن محمد بن صهبان ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ موصولاً . أخرجه البزار (كشف/ ٤٤٠) ومن طريقه ابن عبد البر (٥/ ٤٥) لكن وهم ابن عبد البر في عمر بن محمد بن صهبان وهو ضعيف=

وقال أبو عمر بن عبد البر : " الوثن الصنم وهو الصورة من ذهب كان أو من فضة أو غير ذلك من التمثال ، وكل ما يعبد من دون الله فهو وثن صنماً كان أو غير صنم ، وكانت العرب تصلي إلى الأصنام وتعبدها، فخشي رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته أن تصنع كما صنع بعض من مضى من الأمم ؛ كانوا إذا مات لهم نبي عكفوا حول قبره كما يصنع بالصنم ، فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تجعل قبري وثناً يصلي إليه ويسجد نحوه ويعبد فقد اشتد غضب الله على من فعل ذلك .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله ، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم واتخذوها قبلة ومسجداً ؛ كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها ، وذلك الشرك

=باتفاق فجعله عمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر وهو ثقة ، بين ذلك ابن رجب .

وقد صححه ابن عبد البر مرسلاً وموصولاً، والصحيح أنه مرسل .

أما حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ فصحيح بهذا الشاهد المرسل .

أما قول ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ : " وهو حديث غريب أعني قوله : « **لا تجعل قبري وثناً يعبد** » ولا يكاد يوجد " اهـ فلا يضر ؛ فمن المقرر أن الغرابة لا تنافي الصحة ، وقد صححه ابن عبد البر نفسه مرسلاً وموصولاً كما قد تقدم .

الأكبر؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه ، وأنه مما لا يرضاه خشية عليهم امتثال طرقهم ، وكان صلى الله عليه وسلم يحب مخالفة أهل الكتاب وسائر الكفار ، وكان يخاف على أمته اتباعهم، ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم على جهة التعيير والتوبيخ : « لتتبعن سنن الذين كانوا قبلكم حذو النعل بالنعل حتى إن أحدهم لو دخل جحر ضب لدخلتموه »"[1]اهـ.

أما الحديث الذي أشار إليه الإمام ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ فهو حديث أبي سعيد الخُدْرِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لاتَّبَعْتُمُوهُمْ .

قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، الْيَهُودَ ، وَالنَّصَارَى ؟

قَالَ : « فَمَنْ »[2] .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه الأخيار الطيبين .

---

(١) انظر التمهيد (٥/ ٤٥) .

(٢) البخاري (ح/ ٣٤٥٦) ، ومسلم (ح/ ٢٦٦٩) .

فهرس الموضوعات

مقدمة الطبعة الثانية ٣

تقديم العلامة ابن جبرين ـ رحمه الله ـ للطبعة الأولى ١٤

مقدمة الطبعة الأولى ١٥

حقيقة التوحيد عند أهل السنة وعند القبوريين

أولاً: التوحيد عند القبوريين (عرض وتحليل)

معنى القبورية ١٧

قيام القبورية على أصلين:

الأصل الأول: حصر التوحيد في اعتقاد الخلق والتأثير:

اتفاق غلاة الصوفية والرافضة على هذا الأصل ٢١

كلام نفيس للشيخ عبد الرزاق البدر ٢٤

كشف حيلة القبوريين ٢٦

أصول دين عبدة الأصنام ٣١

تكذيب القبوريين للقرآن وسعيهم في إبطال حجته ٣٣

صفة حجية الميثاق ٣٧

وقفة مع صاحب المفاهيم ٤٧

من حيل أهل البدع :
المالكي يقلب الأصل فرعاً والفرع أصلاً ٥٤
محمود سعيد يتزي بزي المعترض ٦٣
الشفاعة الشركية ٨٥
قاعدة في علاقة النفي بالإثبات في تحقيق الصفة ٨٨
عودة إلى معنى الشفاعة الشركية ٩٢
حيلة دوشتي ٩٥
سقطة غمارية ٩٩
القياس الفاسد وشبه القبوريين ١٠٨
الأصل الثاني للقبوريين : التوسع في دعوى المجاز العقلي:.......... ١٢٨
أقسام الألفاظ في طلب الانتفاع بالميت ١٢٩
تمرير القبوريين ألفاظ الشرك الجلي بدعوى المجاز العقلي ١٣٠
بيان كذب القبوريين على القائلين بالمجاز ١٣٢
الغماري يدس طلب غفران الذنوب من الأولياء ١٤٠
من أقوال أئمة القبوريين ١٤٦

ثانيا : حقيقة التوحيد عند أهل السنة

التقسيم الاستقرائي لمعاني التوحيد ١٦١

وجه الدلالة بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ١٦٢

مسألة في الاشتقاق ١٦٤

كلام نفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ١٦٩

حديث « اللهم لا تجعل قبري وثناً » وكلام نفيس للإمام ابن

عبد البر ـ رحمه الله ـ في معناه ١٨٠

فهرس الموضوعات ١٨٥